تأملات في القيم الصوتية في القرآن الكريم

نعنى بالقيم الصوتية تلك الخصائص التى تتمايز بواسطتها الأصوات ويتعلق بها نوع من المعانى يسمى المعانى الطبيعية، التى لا توصف آثارها بأنها عرفية ولاذهنية لأنها فى الواقع مؤثرات سمعية انطباعية ذات وقع على الوجدان «تدركها المعرفة ولا تحيط بها الصفة»، فمثل تأثيرها فى وجدان السامع مثل النغمة الموسيقية تطرب لها ثم لاتستطيع أن تقول لم طربت. ونستطيع أن ننسب إلى الأسلوب القرآنى من هذه القيم عددا نأمل أن نتناوله بالدراسة منه الإيقاع والفاصلة والحكاية والمناسبة وحسن التأليف وسنتناول ـ إن شاء الله ـ كل واحدة من هذه الظواهر على حدة فى الفقرات التالية:

أولاً ـ الإيقاع:

لقد جعلنا من عادتنا العقلية أن نُحْكِمَ الربط بين مصطلح «الإيقاع» والشعر الموزون فنقول: «إيقاع الشعر» ونحن نعنى «وزن الشعر»، ولم تعرف تقاليدنا الفكرية إدراك الرابطة التى تربط الإيقاع بصور التعبير الأخرى بل إننا كلما تمثلت ظاهرة الإيقاع لإدراكنا غلفناها بطائفة من الصور المجازية فى التعبير عنها. وقد بدأ هذا التغليف بالمجاز منذ قال القائل: «إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة... إلخ» فأين الحلاوة والطلاوة (وهما من حس اللسان والنظر) من الإيقاع (وهو مما تحسه الأذن)؟ أما هنا فنحن نحاول أن نكشف عن الظاهرة كشفا علميا وأن نخضعها لنوع من الوصف يجعل الكلام عنها من قبيل الحقيقة وليس من قبيل المجاز. إن المدخل إلى دراسة الإيقاع لا يكون إلا من خلال معرفة المقاطع اللغوية العربية المختلفة الكميات وما يتصل بذلك من قواعد النثر فى الكلام. وحين حاول العروضيون أن يصلوا إلى

دراسة تقلبات أجزاء التفعيلات حددوا الأسباب والأوتاد وصاغوا لها عبارتهم المشهورة «لم أر على ظهر جبل سمكة» ولكنهم لم يحددوا مقاطع اللغة العربية لأن أغلب ألفاظ هذه العبارة مكون من أكثر من مقطع واحد. ولو حاولنا أن نقطع هذه العبارة بحسب مقاطع اللغة لبدت على النحو التالى:

لمْ ـ أَ ـ رَ ـ عَ ـ لاَ ـ ظَهْ ـ رِ ـ جَ ـ بَ ـ لِنْ ـ سَ ـ مَ ـ كَ ـ تَنْ، ذلك أن دراسة المقاطع فى العربية لها شروطها التى لا تتحقق إلا برعايتها ومنها ما يلى:

١ ـ كل حرف متحرك فهو بداية مقطع.

٢ ـ كل صوت ساكن بعد حركة أو مد فهو نهاية مقطع، وقد يشدد هذا الساكن عند الوقف.

٣ ـ هناك مقطع بحسب الأصل ومقطع بحسب الاستعمال ويتصل هذا التفريق فى الغالب بهمزة الوصل.

٤ ـ نحن معنيون فى هذه الدراسة بالمقاطع الاستعمالية لا التنظيمية لأن موضوعنا هو الإيقاع وهو ظاهرة استعمالية.

قد يكون رقم ٣ السابق بحاجة إلى فضل إيضاح لأننا لم نحدد طبيعة اتصال التفريق بين موضوعنا وبين نوعى المقاطع تحديدا واضحا. ولهذا نسوق مايلى:

أ ـ يعترف نظام اللغة العربية بإمكان افتتاح الكلمة العربية بحرف ساكن ولكنه لا يجيز الابتداء به فإذا قلنا: «انطلقوا» فإن أول حرف من حروف الكلمة هو النون الساكنة أما الألف فليست أكثر من (وسيلة كتابية) تشير إلى موقع «الوصل»، فهى ليست من بنية الكلمة ومثلها كمثل الألف التى جاءت بعد واو الجماعة من كلمة «انطلقوا» السابقة لتدل على أن الواو للجماعة، وليست للجمع وتظهر فائدة هذه الأخيرة فى التفريق بين «قاتلوا زيداً» و«قاتلو زيدٍ» مثلا.. إذ تشير بوجودها إلى أن الواو فى العبارة الأولى للجماعة (أى أنهّا ضمير) كما يشير غيابها من المركب الإضافى فى العبارة الثانية إلى أن الواو للجمع (أى أنها حرف). ولما كانت كلمة

«انطلقوا» فى حال نطقها بحاجة إلى همزة وصل يتوصل بها إلى نطق أول الكلمة، أصبحت المقاطع الاستعمالية (أى الصوتية) للكلمة على النحو التالى:

ء نْ ـ طَ ـ لَ ـ قُو

ولَو وقعت الكلمة فى الوسط فلم يبدأ بها السياق لكان على الحرف الذى قبل النون الساكنة أن يحمل الحركة التى كانت للهمزة التى بدىء بها الكلام من قبل، وأن يكوّن هذا الحرف مع النون مقطعا واحداً. فإذا نظرنا إلى هذه الكلمة نفسها فى قوله تعالى: ﴿ **فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ** ﴾ (القلم ٢٣) وجَدنا المقطع الأول على صورة «فَنْ» أى أن الفاء حلت محل همزة الوصل التى فى المقطع (ء نْ) السابق.

ب ـ هذا الفهم لاغبار عليه عند النظر إلى الاستعمال الذى يأتينا بمقاطع صوتية بل إن المقاطع الصوتية هى طلبتنا فى هذه الدراسة. لكن ماذا عن التأصيل النظرى بحسب نظام اللغة وبخاصة فى ضوء الشرط الثانى الذى يجعل كل صوت ساكن بعد حركة نهايةً لمقطع. النون فى كلمة «انطلقوا» ساكنة. فالنون إذاً نهاية مقطع ولكن أين بداية هذا المقطع بحسب أصول اللغة؟ إنه لا بداية له من حيث التأصيل وإن كانت له بداية فى الاستعمال «نخلص من ذلك إلى أن النون فى «انطلقوا» مقطع تأصيلى بذاته، به بدأ المقطع وبه انتهى، ويحسن أن يسمى مقطع الوصل لأنه تأصيلى لايوجد إلا فى الذهن بواسطة التجريد العقلى ولا يوجد فى الاستعمال.

جـ ـ يأتى هذا المقطع ذو الوجهين (مقطع الوصل) فى اسماء بعينها وفى أداة التعريف وفى ماضى الخماسى والسداسى وأمرهما ومصدرهما وأمر الفعل الثلاثى. ولنا أن نذكر قول ابن مالك «أل حرف تعريف أو اللام فقط» لنرى أن اللام فقط مقطع تأصيلى مستقل.

بهذا نصل إلى نقطة يحسن عندها أن نعرض صور المقاطع الاستعمالية الصوتية للغة العربية وسنرى أنها كما يلى:

المقطع الأول: صوت متحرك وليس بعد حركته صوت ساكن مثل المقاطع

الثلاثة فى لفظ «ضرَبَ» مبنيا على الفتح، فكل مقطع منها صوت متحرك ليس بعده سكون هكذا: ضَ ـ رَ ـ بَ ـ ويرمز لهذا المقطع بالرمز «ص ح».

المقطع الثانى: صوت متحرك بعد حركته صوت ساكن، ومثال ذلك المقاطع التى تتكون منها عبارة «لمْ يَكْتُبْ». فاللام فى «لم» متحركة بهدها ميم ساكنة ومثلها الياء فى «يَكْ» وكذلك التاء فى «تُب» فهما متحركتان بعد كل منهما صوت ساكن أيضا، ويرمز لهذا المقطع بالرمز «ص ح ص».

المقطع الثالث: صوت صحيح يتلوه مدّ وليس بعد المدسكون: «وَافَانِى» فكل من الواو والفاء والنون جاء بعده مدّ وليس بعد المدسكون، والرمز الدَال على هذا المقطع هو «ص م».

المقطع الرابع: صوت يتلوه المد وبعد المد سكون كما فى «ضالّين» و«طامّة» و«صاخّة» فالمقطعان فى كل من هذه الكلمات كما يلى: ضَالْ ـ لِينْ، طامْ ـ مَهْ، صاخْ ـ خَهْ، أى أن المقطع الأول من كل هذه الكلمات من هذا النوع (ضالْ ـ طامْ ـ صاخْ) ويرمز له بالرمز «ص م ص».

المقطع الخامس: صوت متحرك وبعد الحركة صوتان ساكنان كما فى الوقف على «قبْلْ» و«بعْدْ» وكما فى المقطع الثانى من مقاطع «دويبّة» (دُ ـ وَيْبْ ـ بَهْ) تصغير «دابّة» و«صويخّة» (صُ ـ وَيْخْ ـ خَهْ) تصغير «صاخّة» ويرمز له بالرمز التالى: «ص ح ص ص».

المقطع السادس: صوت يتلوه مد وبعد المد صوتان ساكنان ولايرد هذا المقطع إلا عند الوقف على ألفاظ مثل «حاجُ» و«تامُ» و«خاصُ» وضالُ» فهو مقطع مرهون بموقع معين ويرمز إليه بالرمز «ص م ص ص» وربما حسن أن يسمى مقطع الوقف.

والمقطع الأول يسمى اختصارا بالمقطع القصير والثانى متوسط مقفل والثالث متوسط مفتوح والرابع طويل المد والخامس طويل التسكين أما السادس فيسمى مقطع الوقف كما قلنا، وهكذا يمكن تلخيص بنية المقاطع الصوتية فى اللغة العربية على النحو التالى:

١ ـ القصير ورمزه ص ح

٢ ـ المتوسط المقفل ورمزه ص ح ص

٣ ـ المتوسط المفتوح ورمزه ص م

٤ ـ طويل المد ورمزه ص م ص

٥ ـ طويل التسكين ورمزه ص ح ص ص

٦ ـ مقطع الوقف ورمزه ص م ص ص

وليس مما يقع فى اهتمام دراسة الإيقاع أن نتكلم عن المقطع التأصيلى المجرد تجريدا ذهنيا (مقطع الوصل) الذى لا يتحقق فى الاستعمال، وإنما ننظر إليه حين يتحقق فى صورة المتوسط المقفل «ص ح ص» بعد أن تجتلب همزة الوصل وحركتها أو آخر حرف من الكلمة السابقة وحركته، فيكون الساكن الموصول بالهمزة خاتمة المقطع الصوتى المذكور هكذا:

ص = همزة الوصل أو آخر حرف من الكلمة السابقة.

ح = الحركة.

ص = الساكن الذى توصلنا إلى النطق به بواسطة الهمزة.. أو آخر الكلمة السابقة.

دعنا بعد ذلك نلق نظرة على النبر: ما معناه وما قواعده لنستطيع بعد ذلك أن نتكلم عن الإيقاع. إذا سمع أحدنا شخصا غيره، يتكلم فسوف يلاحظ أن الكلام لايجرى على طبقة صوتية واحدة بل يرتفع الصوت عند بعض مقاطع الكلام أكثر مما يرتفع عند غيره، وذلك ما يعرف باسم «التنغيم» وبه يرتبط معنى الجملة إثباتا أو تأكيدا أو استفهاما أو إنكاراً أو غير ذلك. أما المتكلم نفسه فسوف يرى أن الصوت، الذى يتم عنده الإنتقال من طبقة صوتية إلى طبقة صوتية أخرى يتطلب قدرا من ضغط الحجاب الحاجز على الرئتين يزداد به مقدار النفس المطلوب لإحداث الصوت فعندما يسلط هذا القدر الزائد على الأوتار الصوتية يعلو الصوت عما جاوره فيحظى

فى السمع بوضوح أكبر من وضوح ما يحيط به من الأصوات. هذا الوضوح النسبى يسمى النبر. حاول أن تنطق الصيغ الصرفية التالية ثم لاحظ الاختلاف بينها من حيث موقع الوضوح السمعى:

فعِل ـ فاعِل ـ فعيل

فأوضح الأصوات فى الصيّغة الأولى (وكل ما يأتى على مثالها بالطبع) إنما هو فتحة الفاء وفى الثانية ألف المد وفى الثالثة ياء المد (لا حظ اختلاف البنية المقطعية لكل صيغة عنها فى الأخرى). فالنبر فى الصيغتين الأوليين على المقطع الأول وفى الثالثة على المقطع الثانى. فإذا ثنيت فقلت: فَعلان وفاعلان وفعيلان انتقل النبر فى جميع ذلك إلى المقطع الأخير (أى إلى ألف التثنية) مما يدل على أن مواقع النبر فى الكلمات تخضع للتبديل بحسب التجرد والزيادة واختلاف البنية المقطعية للكلمة، وسنرى من بعد أن النبر فى السياق ربما اختلف عن النبر فى الإفراد فتحكمه مطالب أخرى هى مطالب «الإيقاع» فى السياق المتصل.

وللنبر فى اللغة العربية قواعد مطردة، بل إن اطرادها ربما كان أثبت من اطراد قواعد النحو، ثم إن قواعد النبر قليلة لأنها تدور حول احتمالات توالى العدد القليل من المقاطع فى الكلمة أو فى السياق، وهى لقلتها يسهل تذكرها والتطبيق عليها وتناولها بالدرس ثم استنباط ما يأتى عن هذا الدرس من نتائج. وهذه القواعد كما يلى:

١ ـ يقع النبر على المقطع الأخير من الكلمة المفردة (أو الصيغة التى عليها الكلمة إن شئت) إذا كان هذا المقطع الأخير طويلا، سواء أكان من النوع الرابع (ص م ص) أو الخامس (ص ح ص ص) أو السادس (ص م ص ص) من الأنواع الستة السابقة. مثال ذلك ما تلاحظه من موقع النبر فى نحو:

مَفْعُولْ ـ يَفْعَلاَنْ ـ فَعَلْتْ ـ البارْ

بإسكان الآخر فى كل ذلك.

٢ ـ ويقع فى الكلمات ذات المقطع الواحد على هذا المقطع الواحد أيا كانت كميته نحو:

ق ـ قمْ ـ ما ـ قالْ ـ قلْ ـ حاجْ

٣ ـ يقع النبر على المقطع الذى قبل الأخير فى الحالات التالية:

أ ـ إذا كان ما قبل الأخير قصيرا والأخير متوسطا أو قصيرا فى كلمة ذات مقطعين أو مبدوءة بهمزة وصل قبلهما كما فى:

كُتُبْ ـ صُوَرْ ـ انطلقْ ـ اخرجى ـ ارعَوِ

ب ـ إذا كان ماقبل الآخر متوسطا وكان الآخر متوسطا أو قصيراً كما فى:

عَلِمْ ـ قاتلْ ـ معلّمْ ـ مُقَاتِلْ ـ استوثق ـ استلقِ ـ حذارِ

جـ ـ إذا كان ما قبل الآخر طويلا واغتفر فيه التقاء الساكنين والآخر غير طويل كما فى:

ضالّة ـ طامّة ـ دُوَيْبَة ـ حُوَيْقَة

٤ ـ يقع النبر على المقطع الذى يسبق ما قبل الآخر إذا كان هذا المقطع قصيرا أو متوسطا بعده قصيران أو قصير ومتوسط نحو:

عَلّمكَ ـ علّمكمْ ـ بَيْنَكُمْ ـ بَيْتُكَ ـ نظرةٌ ـ ابتسامةٌ

٥ ـ يقع النبر على الثالث مما قبل الآخر إذا كان الآخر قصيرا أو متوسطا قبله ثلاثة قصار نحو:

ضربَكَ ـ بَقَرَةٌ ـ يَرِثُنِى ـ تَعدُهُمْ ـ وَجَدَكَ ـ نَكِرَهُمْ

٦ ـ لايقع النبر على مقطع قبل ذلك المذكور أخيراً.

هذا هو نبر الكلمة المفردة (والإفراد هنا بالمعنى الإملائى وإن كانت مركبة بالمعنى النحوى بواسطة وصل الضمائر والحروف الزائدة). ولكن الاستعمال اللغوى لايتم من خلال إفراد الكلمات لأن الكلمة المفردة ذات معنى مفرد والمعنى المفرد لايتصف بالإفادة. فإذا كانت الإفادة هى مطلب الاتصال اللغوى فأولى بهذه الاتصال أن يتم من خلال سياق لغوى مركب ذى علاقات نحوية ومعان دلالية وقرائن من كل نوع يتوصل بها إلى الإفهام والفهم. وحين تتجاور الكلمات فى السياق اللغوى ينشأ من

تجاورها ظروف جديدة تفرض على النبر أن يقع فى مواقع من الكلمات لم تكن له فى حالة الإفراد. وهذه الظروف الجديدة هى مقتضيات الإيقاع الذى ينسب إلى السياق ولاينسب إلى المفردات.

غير أن الكلمة المفردة إذا تعددت مقاطعها حتى صارت من حيث مطلق حركاتها وسكناتها بوزان كلمتين قصيرتين لم تقنع بنيتها بالنبر الذى شرحنا قواعده منذ قليل، وإنما تضع على موقع مما يسبق هذا النبر نبرا آخر أقل قوة من ذلك يسمى النبر الثانوى. انظر مثلا إلى الكلمات التالية تجد كلا منها بوازن كلمتين قصيرتين:

صافّات = «قالْ» ساكنة اللام مرتين

مستقيم = جَاءَ أمسْ

يستبقون = لَيْسَ يهون

هنا يأتى النبر الثانوى قبل النبر الأوّلى ليوجد توازنا بين أجزاء الكلمة. وهذا النبر أيضا يخضع لعدد من القواعد أقل مما سبق يمكن تلخيصها على النحو التالى:

١ ـ يقع النبر الثانوى على المقطع السابق للنبر الأوّلى مباشرة إذا كان هذا السابق طويلا نحو:

الصافات ـ الضالّين ـ اتحاجُّونّى

٢ ـ ويقع على المقطع الثانى مما يسبق النبر الأوّلى إذا كان هذا الثانى متوسطا والذى بينه وبين النبر الأوّلى قصيراً أو متوسطا نحو:

مستبْقين ـ مستقيم ـ مستعدَ ـ يستخْفون ـ عاشرناهم ـ قاتلوهم

٣ ـ ويقع النبر الثانوى على المقطع الثالث مما قبل النبر الأولى فيما يلى:

أ ـ إذا كان هذا الثالث قصيرا بينه وبين النبر الأوّلى قصيران نحو:

بقرتان ـ كَتَبْتَاه ـ كَلِمتان

ب ـ أو كان متوسطا بينه وبين النبر الأوّلى قصيران نحو:

يَسْتَبِقون ـ محترَمان ـ مُنْطَلِقَات

أو قصيراً فمتوسطاً نحو:

يَسْتَقِيمون ـ مُسْتطيلان ـ مُسْتطيعات

ذلك النبر الثانوى يوضح من مقاطع الكلمة مالولاه لخفى فى السمع، ويوجد من التوازن بين جزئى الكلمة مايجعلها أكثر قبولا فى الذوق وإراحة للأذن وإن كان هذا القبول وتلك الإراحة ما يزالان على مستوى الكلمة المفردة لا على مستوى السياق. فماذا عن النبر فى السياق؟

إذا تأملنا النص المتصل (السياق) لاحظنا أنه يشتمل على كلمات تختلف طولا وقصرا بين أن تكون على حرف واحد كباء الجر ولامه، وبين أن تكون على عدد أكبر، حتى إن الكلمة قد تكون فعلا من ستة أحرف أسند إلى ضمير متصل ذى حرفين نحو «يستخرجون» و«يستغفرون» فإذا عطف هذا الفعل بالفاء زاد على حروفه حرفا نحو «فيستغفرون» بل قد يزيد عدد الحروف على ذلك كما فى: «فيسكفيكهم»، إذ تحف باللفظ عناصر الزيادة فى أوله عطفا وتنفيسا والضمائر المتصلة فى آخره: خطابا وغيبة: فإذا علمنا أن هذه العناصر التركيبية الجامدة كالحروف والضمائر قد تقل حروفها حتى لا تصلح للإفراد، أدركنا أنها قلما يصدق عليها ما تقدم إيضاحه من نبر الكلمة المفردة ولكنها مع ذلك جزء من السياق لايمكن تجاهله فى الاستعمال، أى عند الأداء الفعلى للكلام. وهكذا نجد تدخّل هذه العناصر فى مجرى السياق يفرض على السياق توزيعا جديدا للنبر يقسم أصوات السياق إلى دفعات، كل دفعة منها بوزان كلمة عربية حتى إن امتدت هذه الدفعة على نهاية كلمة وبداية ما بعدها، مزجت نهاية السابقة وبداية اللاحقة فى خفقة واحدة من خفقات النَّفَس عند التكلم ـ إنّ توالى هذه الدفعات (أو الخفقات) غير المرتبطة بحدود الكلمات المفردة بدءاً ونهاية هو ما نعرفه باسم الإيقاع فى الكلام.

مثل ذلك أن الفعل «سارعوا» فى حال الإفراد يشتمل على نبر أولى على ألف المد من مقطعه الأول ولكنه إذا عطف بالواو فصار: «وَسَارِعوا» تغيرت خطة النبر فيه فاشتمل على نبر ثانوى على حركة الواو ونبر أوّلى على حركة الراء، فصار كأنه

كلمتان إحداهما «وَساَ» والثانية «رِعُوا» وكلتاهما تشبه الفعل «رَمَى» من حيث مطلق الحركات والسكنات فتستحق من النبر ما يستحق الفعل «رَمَى». ويصدق ذلك على قوله تعالى: ﴿ وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ﴾ (آل عمران ٢٠٠).

وإذا تأملنا كلاما متصلا لاحظنا تشابه المسافات بين نبر ونبر أو تقارب الشبه بينهما، فقد يكون بين النبرين مقطع واحد أو مقطعان أو ثلاثة على أكثر تقدير، دون أن يقع النبر على أحد هذه الثلاثة. ثم إن النبرين المتواليين قد يكونان من قبيل النبر الأوّلى وقد يكون أحدهما ثانويا. وهذا التشابه أو قرب الشبه بين كميات المسافات يمنح الأذن إحساسا بالإيقاع. ولكن اللغات تختلف فى تحديد مواقع النبر حتى إن لكل لغة إيقاعاً خاصا تمتاز به بين لغات البشر. فالقواعد التى أوردناها ونسبناها إلى النبر فى اللغة العربية لاتصدق على لغة أخرى غيرها، بل حتى على اللهجات العامية المعاصرة فى العالم العربى. فهذه اللهجات تختلف عن العربية الفحصى فى تحديد مواقع النبر كما تختلف كل واحدة منها عن الأخرى فى هذا المجال.

وفى طوق منشىء النص أن يمنحه من رشاقة الإيقاع مالا يستطيعه المتكلم العادى، حتى إذا ما قرأت هذا النص المنثور أحسست له خفة على اللسان وراحة فى الأذن وقبولا فى النفس يقترب بك مما تجده من ذلك لوزن الشعر، وبهذا يمتاز نص عن نص. وإن بعض الأساليب النثرية ليستحق عن جدارة أن ينسب إلى الإيقاع أو ينسب إليه الإيقاع فيوصف بأنه ذو أسلوب موسيقى موقّع أو رشيق دون أن يلجأ منشئه إلى المحسنات اللفظية من أى نوع أنظر مثلا إلى أسلوب الجاحظ أو إلى أسلوب أبى حيان التوحيدى أو أسلوب طه حسين أو أسلوب الزيات ثم تأمل هذه الخاصية الإيقاعية وستجدها حقيقة واقعة تحس بها ولاتستطيع وصفها لأنها «تحيط بها المعرفة ولا تدركها الصفة» كما قال الموصلى.

وحين أحس الشهاب الخفاجى بالإيقاع القرآنى لم يستطع الإشارة إليه على علاته وإنما انتقى من العبارات القرآنية ما أمكن أن يطوعه للوزن الشعرى. أما الإيقاع الذى

يستعصى على الوزن فلم يكن فى طوق الخفاجى أن يكشف عنه أو أن يشير إليه. لقد بنى الخفاجى منظومته الشعرية التى ضبط بها كميات البحور وتفعيلاتها على هذه العبارات القرآنية المذكورة ليسهل على المتعلم تذكر المنظومة. وحسبنا أن نورد أمثلة من هذه المنظومة توضح موقف الخفاجى الذى أشرنا إليه:

١ ـ قال فى تحديد كمية بحر الطويل:

أطال عزولى فيك كفرانه الهوى ... وآمنت ياذا الظبىُ فأنس ولا تنفر

فعولن مفاعيلــن فعولن مفاعلن ... فمَنْ شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر

٢ ـ وقال فى البسيط:

إنى بسطت يدى أدعو على فئة ... لاموا عليك عسى تخلو أماكنهم

مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن ... فأصبحــوا لايـرى إلا مســاكنهم

٣ ـ وقال فى المديد:

يا مديد الهجر هل من كتابٍ ... فيــه آيــات الشفا للسقيمِ

فاعلاتن فاعلــن فاعـــــلاتن ... تلك آيات الكتاب الحكيمِ

٤ ـ وقال فى المتقارب:

تقارب وهات استقنى كأس راحٍ ... وباعد وشاتك بعد السماءِ

فعـولن فعـولن فعـولن فعـولن ... وإن يستغـيثوا يغـاثـوا بماءِ

١ ـ أن هناك فروقا بين النبر الأوّلى والنبر الثانوى يمكن تلخيصها فى النقط التالية:

أ ـ أن النبر الأوّلى مطلب صرفى مسرحه الكلمة المفردة، ولكن النبر الثانوى مطلب إيقاعى يتحقق فى إحدى بيئتين، أولاهما الكلمة التى طالت بنيتها حتى احتاج النطق بها إلى إيجاد توازن صوتى بين أجزائها، والثانية بيئة السياق الذى

تدعو الحاجة فيه إلى الإيقاع بسبب ما يعرض له من إرباك نبر الكلمات بسبب اللواصق والحروف والأدوات التى تعرض فى السياق.

ب ـ أن النبر الأوّلى يحسب بواسطة التراجع من نقطة انتهاء الكلمة، وإن الثانوى يحسب بالتراجع من نقطة وقوع النبر الأوّلى.

جـ ـ أن المسافة بين النبر الثانوى والأوّلى الذى بعده إذا نظرت إلى مطلق الحركات والسكنات فيها وجدتها فى وزان كلمة عربية. وهكذا إذا نظرنا إلى كلمة مثل: «يستعينون» وجدنا بها نبرا أوليّا على المقطع الأخير «نُونْ» ونبراَ ثانويا على المقطع الأول (يَسْـ) أى أن كمية ما قبل النبر الأوّلى هى بمقدار كلمة عربية، أى أن ما قبل النبر الأولى هو «يَسْتَعِى» وهو فى الكمية يساوى «يرتقى» أو «يستقى» أو «جاهدوا» أو أية كلمة لهَا هذه الكمية. ولكن هذه الكمية لما كانت جزء كلمة ولم تكن كلمة تامة صالحة للإفراد، وقع النبر عليها ثانويا لا أوليًا، على حين تستحق الكلمات الأخرى التى على وزنها: (يرتقى.. إلخ) نبراً أوليّا على أول مقطع فى كل منها بسبب استقلالها وصلاحيتها للإفراد.

د ـ أن النبر الثانوى أضعف جهد من النبر الأولى لأن ضغط الحجاب الحاجز على الرئتين عند إيقاعه أضعف منه عند إيقاع النبر الأولىّ.

٢ ـ لو اتحدت كميات الكلمات العربية فتشابهت فى بنيتها لوقع النبر فيها على صورة واحدة ولكان النبر فى اللغة العربية صرفيا كله، أو لجاء إيقاع اللغة متساوى المسافات رتيبا مملا كوقع خطوات المشىء كما فى عبارة «من تأنى نال ماتمنى» إذ يقع النبر فيها على كلّ مقطع بعد مقطع بانتظام، ولكن اختلاف الكلمات طولا وقصرا وتجردا وزيادة واتصالا وانفصالا حال دون هذه الرتابة وذلك الملل وجعل للغة إيقاعا لا مجرد وقع. ولكن الإيقاع المقصود هو إيقاع فى نطاق التوازن لا فى نطاق الوزن. فالوزن فى العربية للشعر والتوازن فى الإيقاع للنثر. والذى فى القرآن متوازن لا موزون.

٣ ـ أن الوزن والتوازن كليهما من صور الإيقاع وهما أيضا من القيم الصوتية التى تصلح أن تكون مجالا للفن والجمال. أما الوزن فبحسبك أن تتأمل ما يمنحه من الجمال للشعر والموسيقى ونحوهما، وأما التوازن فيكفى أن تنصت إلى صوت قارىء مجيد يرتل القرآن الكريم (ولا أقصد ترتيل التطريب بل الترتيل بدون تطريب) وسترى عندئذ أن ما فى القرآن من جمال التوازن قد يجاوز أحيانا جمال الوزن. وانظر كذلك إلى الكثير من أساليب الترتيل ـ وبخاصة مابنى منها على قصار الجمل ـ وسوف ترى لها جاذبية خاصة تجتذب إليها انتباهك، وتمنح أذنك من المتعة ونفسك من الارتياح مالا تجده فى بعض الشعر والغناء.

وكلما تقاربت أعداد المقاطع بين النبرين أو انتظم اختلاف بعضها عن بعض حَسُنَ إيقاعها والعكس صحيح، بمعنى أن هذه الكميات بين نبر وآخر إذا تباينت ولم تتقارب أحس السامع كأن المتكلم يتعثر فى مشيئه، بل أن المتلكم نفسه لابد أن يحس هذا الإحساس. أما هذا التقارب وذاك الانتظام فهو الذى نجده فى إيقاع الأسلوب القرآنى كما يتضح مما يلى من الشواهد وقد تم اختيار هذا النماذج اعتباطا، فيصدق على غيرها من آيات القرآن ما يصدق عليها:

١ ـ ﴿ **أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ** ﴾ (البقرة ١٩).

٢ ـ ﴿ **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُم** ﴾ (البقرة ٢٢).

٣ ـ ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ** ﴾ (آل عمران ١٤).

٤ ـ ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ (النساء ٢٠).

٥ ـ ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاص ﴾ (المائدة ٤٥).

٦ ـ ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (الأنعام ٥٩).

٧ ـ ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (الأعراف ٨٥).

٨ ـ ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لاَّ تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (التوبة ٩٤).

٩ ـ ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (يوسف ٢٥).

١٠ ـ ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ (الكهف ١٦).

دعنا نجرب تقطيع الآية الأولى إلى دفعات النبر فيها لنرى كيف يحدث الإيقاع

من تقارب الأطوال بين المسافات بين كل نبر وآخر أو انتظام ائتلاف المقاطع فى مجموعات فارقة بين مواقع النبر:

أَوْكَ ـ صيَبٌ ـ منَ السّـ ـ ماء ـ فيه ظُلُ ـ مَاتٌ وَ ـ رَعْدٌ وَ ـ بَرْقٌ ـ يجْعَ ـ لونَ ـ أَصَابِعَهُمْ ـ فى آ ـ ذَانهِمْ ـ مَنَ الصَ ـ واعق ـ حَذَرَالْ ـ مَوْتِ وَالْ ـ لاَهُمُ ـ حِيطٌ بِالْكَاَ ـ فرين.

بين النبر الأول والثانى مقطَعَ واحد هو (كَ) وبين الثانى والثالث اثنان هما (يب) وبين هذا والذى بعده اثنان هما (نَ السّـ) وبعد النبر التالى مقطع واحد هَوٌ (ء) وهكذا يستمر الفارق فى هذه الحدود فيكون الإيقاع. حاول مثل هذا التقطيَع فى بقية الآيات السابقة وستعلم عندئذ أن المقصود بالإيقاع ليس هو الوزن المحكم وإنما هو التوازن الناشىء عن تقارب الشبه بين المسافات الفاصلة بين كل نبر ونبر ثم ترى من بعد أن هذا التوازن هو مصدر رشاقة الأسلوب وسبب قوى من أسباب ارتياح النفس له واحتفائها به.

لقد رتل الله القرآن ترتيلا (الفرقان ٣٢) وأمر رسوله أن يرتل القرآن ترتيلا (المزمل ٤) والمعروف أن الترتيل مصدر رتّل يرتّل وأنه وضع المجموعات فى أرتال كل رتل منها طائفة مجتمعه مجتمعه وبين كل رتل ومايليه انقطاع مؤقت. فأما الترتيل بالنسبة لله تعالى فذلك أنه أنزل القرآن منجما حسب الوقائع وأسباب النزول فإذا أنزل آية أو آيات عُدّ رتلا قائما بذاته بعده فترة انقطاع الوحى ثم يعود الوحى برَتَل آخر من الآيات وهكذا وهذا المعنى لايمس موضوعنا (وهو الإيقاع) مسًا مباشرا. أما الترتيل بالنسبة إلى النبى صلى الله عليه وسلم فهو طريقة من طرق الأداء والقراءة. فتجويد القرآن يشتمل إلى جانب إعطاء الأصوات حقها على أمور أخرى منها المد بأنواعه والغنة والسكت وما إلى ذلك مما يعد من قبيل الانقطاع المؤقت لتوالى الأصوات التى تتكون منها الألفاظ. فالمد كالسكون والسكون كالسكوت وانقطاع الكلام، وقل ذلك عن الغنة لأنها «مد» بالنون، وقل ذلك أيضاً عن السكت وهكذا. فإذا قرأ القارىء مع الترتيل أتى بكل رتل وآخر وبينهما فترة انقطاع هى إما

مد أو غنة أو سكت ألخ. . هذا النوع من الترتيل يضيف إلى إيقاع القرآن الكامن فى نصه إيقاعاً آخر طارئا عليه من خلال الأداء والقراءة فإذا اجتمع الإيقاع الصوتى وذلك الإيقاع الترتيلى لم يكن للأذن إلا أن تستمع وتنصت وتستمتع بالجمال وسبحان الله تعالى إذ يقوول لعباده المؤمنين: ﴿ **وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾ (الأعراف ٢٠٤).

ثانيا ـ الفاصلة:

حين سمع كفار قريش تلاوة القرآن لأول نزوله حاروا فى أمر نظمه. فلقد كانوا يعرفون من ضروب الكلام العربى لأيامهم الشعر والخطابة والسحر وسجع الكهان ولم يكن القرآن فى تراكيبه ولا فى أسلوبه يشبه واحداً من هذه الأضرب. ولكنهم لم يؤمنوا بأن هذا الطراز الفريد من النظم من وحى السماء فنسبوه إلى البشر منكرين مصدره الألهى فكان عليهم وقد أنكروا ذلك أن يلحقوه بنوع من أنواع الكلام التى تقدم ذكرها. فنظروا فى خصائص تراكيبه وفى أسلوبه وفكروا فى أمره فلم يستطيعوا أن ينسبوه إلى الخطابة لاختلاف بينه وبينها فى الأسلوب والوظيفة ولأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يقم بينهم خطيبا بما أنزل عليه من القرآن، ولم ينسبوه إلى سجع الكهان لوضوح مقاصده وغموض السجع ولأنه ليس مسجوعا ولا يلتزم ذلك فى أسلوبه. بقى من أنواع الكلام فى عهدهم السحر والشعر. ولم يترددوا فى اتهام القرآن بنسبته إلى أحد هذين النوعين. أما السحر فقد راعهم أن القرآن حين هدى الله به من هدى من المؤمنين نأى بعضهم بدينه عن أهله وذويه وخاصم أهله وذويه تمسكا بدينه فرأى المشركون أن القرآن وقد فرق بين المرء وأهله لابد أن يكون سحرا لآن ذلك شأن السحر: ﴿ **إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ** ﴾ (المدثر ١٨ ـ ٢٥) كان هذا كيد الوليد بن المغيرة. أما كيد غيره من مشركى قريش فقد جاء بنسبة القرآن إلى الشعر لقد رأوا للقرآن

فواصل تنهى بها آياته كما رأوا فيه مدحا وذما ووعدا ووعيدا وشيئا من الأغراض التى يرمى إليها الشعر فَغَرَّهُمْ ذلك عما فى القرآن من أمورلا تكون فى الشعر كعدم الوزن وكطلب الهداية والدعوة إلى دين الله وما فى القرآن من تشريع ونحوه فانزلقوا إلى نسبة القرآن إلى الشعر على الرغم من ذلك وهكذا نسب المشركون القرآن إلى السحر مرة وإلى الشعر مرة أخرى.

كان من اليسير دفع الشبهة الأولى عن القرآن لأن السحر لا يأتى للإصلاح ولا للدعوة ولا يكون بلغة واضحة بله تلك اللغة المعجزة التى نزل بها القرآن ثم إن السحر يفرق ولكن القرآن يوحد والسحر يهدم ولكن القرآن أنشأ عقيدة وشريعة وأقام خير أمة أخرجت للناس مادامت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله. كل ذلك كان من أثر القرآن الكريم وقد تم كله فيما لا يتجاوز عمر رجل واحد منهم فقد كان عمر رضى الله عنه أحد من نصبوا أنفسهم لعداء الدعوة أول الأمر وقد كان عمر نفسه هو الذى تمت الفتوح فى عهده شرقا وغربا. لقد علم ذلك عامتهم كما علمه خاصتهم فانتفى عندهم ما زعمه الوليد من أن القرآن سحر. وأما دعواهم أن القرآن شعر فقد كان دفعها يتطلب معرفة بالفروق العديدة بين القرآن والشعر من حيث الصِّياغة والأسلوب والأغراض وقد كان خاصتهم يعرفونها أكثر مما يعرفها عامتهم ومن هنا نهض النص القرآنى برفض هذه الدعوى من جهة: ﴿ **وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ** ﴾ (الحاقة ٤١) ونفى صفة الشاعر عن النبى صلى الله عليه وسلم من جهة أخرى من خلال ذم بعض سلوك الشعراء: ﴿ **وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا** ﴾ (الشعراء ٢٢٤ ـ ٢٢٧)

فهم يهيمون فى كل واد يتكسبون بالشعر وهم يقولون مالا يفعلون حين ينسبون إلى أنفسهم مغامرات مع النساء أو بطولات ضد الاعداء لم تقع منهم ولا عرفوا بها ولم يكن هذا من خلق النبى المعصوم صلى الله عليه وسلم وهو الذى عرف طول عمره

بالصادق الأمين بقى أن نعرف الفروق النظرية بين القرآن والشعر وهذا ما نتصدى لبعضه فى الفقرات التالية إن شاء الله.

لقد مر بنا بيان المقصود بالإيقاع المطلق المتوازن غير الموزون. واتضح لنا الفرق بينه وبين الإيقاع الموزون فى الشعر وهذا أحد الفروق المهمة بين الأسلوبين الشعرى والقرآنى. ونود الآن أن نذكر الفرق بين الفاصلة القرآنية والقافية الشعرية. لقد تعود العربى أن ينظر إلى شطرات قصيدته فيجعلها أزواجا كل زوج منها بيت. والبيت عند العربى فى الحقيقة خباء أو خيمة. فكأن القصيدة كانت فى نظر الشاعر أشبه بمضرب من مضارب الخيام. وإذا كان للخيمة عمود فلابد لبيت الشعر أن يقوم على عمود ولكن العمود نسب إلى الجنس ليعم كل أفراده فقيل: «عمود الشعر» وكما تسقط الخيمة بازالة عمودها ينهار البيت أو القصيدة عند عدم رعاية عمود الشعر. ولعل من أشهر ما يعد من عمود الشعر الوزن والقافية. أما الوزن فقد مضى القول فى الفرق بينه وبين الإيقاع القرآنى وأما القافية فهنا مجال التفريق بينها وبين الفاصلة.

إن تقفية الشعر تعنى تطابق خواتيم الأبيات من الناحية الصوتية. وقد جعل الالتزام بالقافية جزءا من عمود الشعر الذى لا يكون الشعر شعراً إلا به ـ وفى القرآن من الفواصل ما يتشابه جرسه فى الأذن ولا يتطابق بالضرورة فى الحرف. فحين سمع المشركون هذه الفواصل ولمحوا تشابه أجراسها غرتهم عن ملكاتهم وأذواقهم فربطوا بينها بالباطل وبين تقفية الشعر ثم ادعوا لأدنى ملابسة أن القرآن قوله شاعر ومن هنا جاء الرد القرآنى عليهم ليقول لهم: ﴿ **وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ** ﴾ (الحاقة ٤١) إن من يتأمل الفاصلة القرآنية ليجد الفارق كبيرا بينها وبين قوافى الشعر. ولقد يمكن تلخيص الفوارق بينهما على النحو التالى:

١ ـ تتطلب القافية التطابق التام بين عدد من الحروف فى آخر كل بيت من القصيدة. فإذا قرأت مثلا قصيدة شوقى:

سلوا قلبى غداة سلاو تابا لعل على الجمال له عتابا

وجدت التقفية تحتم أن تنتهى أواخر أبيات القصيدة بألف بعدها باء بعدها ألف،

وألفيت ذلك ملتزما فى نهاية كل بيت من القصيدة بل إن ذلك التزم أيضا فى شطرى مطلع القصيدة على نية «التصريع».

وكذلك الحال إذا قرأت أية قصيدة جاهلية أو إسلامية جارية على شروط عمود الشعر. بل إن محاولات التجديد فى الشعر حين ثارت على الإطراد المطلق للقافية لم تطرحها اطراحا تاما ولو فعلت لخرج ما أتى به هذا التجديد عن حدود الشعر وهكذا منح التجديد التفقية (أو اضطر إلى منحها) اطرادا مقيدا كما فى الموشحات الأندلسية ونحوها. وحين بالغ أصحاب الحداثة من جيلنا هذا فعمدوا إلى أن يطرحوا القافية افتتانا بما رأوا من تقاليد الآداب الأخرى رمونا بالخنثى المشكل من القول فلم نجد لهم شعرا ولم نجد لم نثرا وانتهوا بنا إلى بلية الدعوة إلى الغموض فباءوا بالتخليط والهذايان. ذلك أن لكل أمة ذوقها وقد تمسك الذوق العربى بعمود الشعر حتى يومنا هذا وما هو بمُزَحْزحه عن عمود الشعر أن يبتلى بتخليط قوم أو هذيانهم. لم يكن عمود الَشعر إذَاً اجتهادا نظريا من العلماء وإنما كان من قبل ذلك فى ضميرْ كل شاعر عربى سواء فطن الشاعر إلى ذلك أم لم يفطن. كان عمود الشعر اكتشافاً للعلماء ولم يكن اختراعا أى أنه ينسب إلى التطبيق ولا ينسب إلى النظر.

أما الفاصلة فلا تلتزم شيئا من ذلك إذ تراها تجرى فى عدد من آيات السورة على نمط ولكنها سرعان ما تتحول عنه إلى نمط آخر. وفى خلال جريها على نمط واحد قد يكون ما يقدم عليه النمط مقصورا على حرف مد فقط كما فى قوله تعالى: ﴿ **خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴿٧﴾ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ** ﴾ (البقرة ٧ ـ ٨) فلا تصلح إحدى الفاَصلَتين أن تقفو الأخرى فى شَعر. وقد يقوم النمط على صفة من صفات حرف فى الفاصلة كصفة الضيّق مثلا (والمقصود ضيق الفم بتقريب جزء من جسم اللسان من الحنك الأعلى أثناء النطق) وهى الصفة التى يشترك فيها الواو والياء كما فى قوله تعالى بعد الآيتين السابقتين: ﴿ **يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ**

﴿ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (البقرة ٩) فهل يصلح للتقفية أن تقوم على توالى ثلاث كلما مثل التى انتهت بها الآيات الثلاث (عظيم ـ مؤمنين ـ يشعرون)؟!

٢ ـ فى كثير من سور القرآن لا يلتزم شىء بعد الحرف الضيق (الواو أو الياء) كما فى سورة الحج فاذا قرأت هذه السورة مثلا وجدت فواصل الآيات لا تحمل شبها أى شبه بالتقفيه لأن فواصل الآيات تجرى على النحو التالى:

عظيم ـ شديد ـ مريد ـ السعير ـ بهيج ـ قدير ـ القبور ـ منير ـ الحريق ـ للعبيد ـ المبين ـ البعيد ـ العشير ـ ما يريد ـ ما يغيظ ـ من يريد ـ شهيد ثم يترك الحرف الضيق إلى الألف فيأتى لفظ «ما يشاء» ثم تعود الفاصلة إلى الحرف الضيق مرة أخرى فتقرأ: الحميم ـ الجلود ـ جديد ـ الحريق ـ حرير ـ الحميد ـ أليم ـ السجود ـ عميق ـ الفقير ـ العتيق ـ الزور ـ سحيق ـ القلوب ـ العتيق ـ المخبتين ـ ينفقون ـ تشكرون ـ المحسنين ـ كفور ـ قدير ـ عزيز ـ الأمور ـ ثمود ـ لوط ـ نكير ـ مشيد ـ الصدور ـ تعدون ـ المصير ـ مبين ـ كريم ـ الجحيم ـ حكيم ـ بعيد ـ مستقيم ـ عقيم ـ النعيم ـ مهين ـ الرازقين ـ حليم ـ غفور ـ بصير ـ كبير ـ خبير ـ حميد ـ رحيم ـ كفور ـ مستقيم ـ تعملون ـ تختلفون ـ يسير ـ نصير ـ المصير ـ المطلوب ـ عزيز ـ بصير ـ الأمور ـ تفلحون ـ النصير.

وهكذا جاءت نهايات الآيات على النحو التالى:

أ ء = ١ يد = ١٢ يم = ١٢ يز = ٢

و ب = ٢ ور = ٨ ون = ٦ و ط = ١

يج = ١ ير = ١٧ ين = ٦

ود = ٣ يق = ٦ = يظ = ١ المجموع = ٧٨

وقد جاءت الياء فى سبع وخمسين فاصلة وجاءت الواو فى عشرين والألف فى فاصلة واحدة ولم يلتزم حرف من الحروف بعد الياء ولا بعد الواو.

وانظر بعد ذلك إن شئت فى فواصل سورة الرعد تجد الواو والنون قد ختمت الآيات الخمس الأولى ثم عَدَلَتْ الفواصل التالية عن ذلك فلم تلتزم إلا ألف المدمع

قطع النظر عما يتلوها من الحروف التى تختتم بها الآيات. وهكذا تجد الفواصل تتوالى بعد ذلك على النحو التالى:

العقاب ـ هاد ـ مقدار ـ المتعال ـ النهار ـ وال ـ الثقال ـ المحال ـ ضلال ـ الآصال ـ القهار ـ الأمثال ـ المهاد ـ الألباب ـ المثياق ـ الحساب ـ الدار ـ باب ـ الدار ـ متاع ـ أناب ـ ثم تأتى الواو فى كلمة «القلوب» ثم تعود الألف مرة أخرى فنجد: مآب ـ متاب ـ ميعاد ـ عقاب ـ هاد ـ واق ـ النار ـ مآب ـ واق ـ كتاب ـ الحساب ـ الحساب ـ الداء ـ الكتاب.

ويسود هذا التباين بين الفواصل فى سور كثيرة من القرآن منها:

آل عمران ـ هود ـ إبراهيم ـ مريم ـ النور ـ لقمان ـ فاطر ـ الصافات ـ ص ـ الزمر ـ فصلت ـ الذاريات ـ الواقعة ـ الحشر ـ المعارج ـ المدثر ـ القيامة ـ المرسلات ـ النازعات ـ عبس ـ التكوير ـ الانفطار ـ الانشقاق ـ الطارق ـ الغاشية ـ الفجر ـ البلد ـ الشرح ـ العلق ـ وغير ذلك من قصار السور.

ولسنا نجد شيئا مما التزمته الفواصل القرآنية يصلح أن يكون قافية. فالواو والميم فى الشعر لا تقفو الياء والنون وكذلك لا يكفى للقافية أن تعتمد على المد الضيق دون نظر إلى ما بعده من بيت الشعر فكلمة «أمين» مثلا لا تقفو كلمة «ادريس» ولو كانت الياء قبل الآخر فى كل منهما ولا يمكن قبول احدى هاتين الكلمتين لتقفو كلمة مثل «نوح» على رغم ضيق المد فى هذه وتلك. وكذلك لايكفى القافية أن يكون الحرف الأخير ألفا مطلقة إذا اختلفت حركات ما قبلها وسكناته فلا يعد من التقفية أن تتوالى كلمات مثل: عجبا ـ همسا ـ تسليماً ـ كثيرا ـ أصيلا ـ عزيزا ـ كما فى سورة الأحزاب. ومغزى كل ذلك أن مطالب الفاصلة تختلف اختلافا تاما عن شروط القافية.

ومع ذلك تأتى الفاصلة فى نهاية الآية لتحقق للنص جانبا جماليا لا يخطئه الذوق السليم لأننا مهما يكن من شىء نحس أنها تضفى على النص قيمة صوتية منتظمة ينقسم سياق النص بها إلى وحدات أدائية تعد معالم للوقف والابتداء

وتتضافر مع الإبقاع الذى سبق شرحه فينشأ من تضافرهما أثر جمالى لا يبعد كثيرا عما نحسه من وزن الشعر وقافيته ولكن هذا الأثر يمتاز عن ذلك بالحرية من كل قيد مما تفرضه الصنعة على الوزن والقافية. ولأمر ما كان الوقف على رؤوس الآى سنة إلاّ أن يفسد به المعنى. ذلك أن الوصول بالقراءة إلى فاصلة الآية يتفق فى الأغلب الأعم مع طاقة النفس الواحد لدى القارىء فيقف القارىء عند الفاصلة ليتزود بزاد نفس جديد وليحس عند الفاصلة بأنه يقف لدى معلم من معالم السياق المتصل تحف به روائق الإيقاع وروائع من كل جانب.

وللفاصلة بتركيب الآية التى ختمت بها أحدى علاقتين:

١ ـ فقد تكون الفاصلة جزءا من تركيب الآية مكملا لبنيتها فلا يتصور تمام معنى الآية إلا به كما فى قوله تعالى: ﴿ **وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ** ﴾ (الأعراف ٧٤ ـ ٧٩) فكل آية مما سبق تنتهى بكلام ذى علاقة عضوية سواء من حيث التركيب أو الأسلوب بما سبق من بقية الآية فلا تكاد الآية تستغنى عنه دلاليا لشدة الارتباط بينه وبين بقية أجزائها.

٢ ـ وقد تأتى الفاصلة بعد تمام المعنى فتكون تذييلا للآية كالتعليق أو التعقيب على محتواها كالذى نجده فى قوله تعالى ﴿ **وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن**

يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤) إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (آل عمران ١٥٢ ـ ١٥٥) فقوله تعالى «والله ذو فضل على المؤمنين» وقوله «والله خبير بما تعملون» ثم قوله «والله عليم بذات الصدور وكذلك ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ إنما جاء بعد تمام المعنى فكان فى موقع التذييل من الآية فأكسبها على جمالها جمالا وحدد معالمها وميزها عن غيرها وأبرز ما تمتاز به من مضمون خاص. والملاحظ أن هناك انسجاما وتألفا بين مضمون الآية ومضمون التذييل فليس فى القرآن آية يدعو مضمونها إلى العقاب وتذييلها إلى المغفرة والرحمة وليس فيه من آية تتضمن رضوانا من الله ينتهى تذييلها بالوعيد وشدة العقاب وهلم جرا.

ولكن الفواصل مع ذلك توقيفية فقد يتحقق فى اللفظ تمام المعنى وحروف االفاصلة ولكن مع ذلك لا يعد من الفواصل انظر ما سبق من قوله تعالى: « من بعد ما أراكم ما تحبون » وقوله جلّ شأنه: ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ (آل عمران ٩٢) وكذلك لم تكن عبارة «كيف يشاء» فاصلة فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ (٥) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ

كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (آل عمران ٥ ـ ٦)، وكذلك عبارة «مَنْ يَشَاءُ» فى الآية رقم ١٣ وعبارة «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ» فى الآية رقم ١٩. هذا والعكس واقع فى القرآن أيضا، فقد تكون الفاصلة دون تَمَام المعنى، وقد تحقق لها جرس ما يحيط بها من الفواصل، كالذى فى سورة البقرة من قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (البقرة ٢ ـ ٥)، فالذين يؤمنون بالغيب صفة للمتقين ومعنى ذلك أن المعنى لم يتم عند الفاصلة الأولى، لأن الصفة تخصص الموصوف، وهو بدونها عام يحتاج إلى هذا التخصيص. فإن قلت إن «الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ» مبتدأ خبره «أولئك عَلَى هُدَى مِنْ رَبِهَمْ» قلت إن الفاصلةَ فى الآيتين الثالثة والرابعة جاءت قبل تمام المعنى، لأنهما جاءتا قبل استكمال الخبر، فالآيات شاهد على هذه الظاهرة كيفما كان الإعراب. ومعنى هذا كما سبق أن الصلة غير مطردة بين الفاصلة وتمام المعنى.

والفاصلة قيمة صوتية ذات وظيفة مهمة تراعى فى كثير من آيات القرآن، وربما أدت رعايتها إلى تقديم عنصر أو تأخيره من عناصر الجملة. ولقد يتكلم البلاغيون فى أغراض التقديم والتأخير فيوردون من أسباب ذلك أمورا تدور حول رعاية المعنى، ربما جعلوا «الاهتمام بمدلول اللفظ» عنوانا يندرج تحته الكثير من هذه الأمور. وهذا أمر لا اعتراض عليه. ولكننى لا أعلم واحدا منهم جعل من أغراض التقديم والتأخير الانتفاع بجرس اللفظ، ربما تركوا ذلك لاهتمامات الشعرا أنفسهم عند اختيارهم للقوافى. أما فى القرآن الكريم فإن أحد الأسباب يمكن أن يوصف بأنه «رعاية الفاصلة» قارن من ذلك ما يلى:

رتبة أصلية	رتبة مشوشة من أجل الفاصلة
١ ـ وينفقون مما رزقناهم	﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (البقرة ٣)
٢ ـ وهم يوقنون بالآخرة	﴿ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (البقرة ٤)

٣ ـ وكانوا يظلمون أنفسهم ﴿ وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ (الأعراف ١٧٧)

٤ ـ ﴿فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (النساء ٤٦، ١٥٥) ﴿فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ (البقرة ٨٨)

لاحظ على وجه الخصوص رقم ٤ فإنك واجد فيه شاهدين من القرآن اشتملا على ألفاظ بعينها اختلفت رتبتها فى أحدهما عنها فى الآخر رعاية للفاصلة. وقد يتجاوز التقديم والتأخير رتبة الألفاظ إلى رتبة الأحداث التاريخية، فيتم تشويش تتابع الأحداث لرعاية الفاصلة، كما فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ (النساء ١٦٣ ـ ١٦٤)، فانظر كيف تقدم عيسى على سلفه وتقدم سليمان على داود وكيف تقدما معا على موسى رعاية للفاصلة. بل حتى عند التفصيل المشتمل على شىء من الطباق نجد ﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ (البقرة ٨٧) بدلا من «ففريقا كذبتم وفريقا قتلتم» وكذلك: ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (النمل٢٧) بدلا من «أَمْ كَذَبْتَ» وأيضا: ﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ ﴾ (النمل ٤١) بدلا من «أَمْ لاَتَهْتَدِي » أو «أم لاَ» كل ذلك يشهد على أن الفاصلة قيمة صوتية ذات وظيفة معينة فى القرآن الكريم وهذه الوظيفة جمالية تستحق الرعاية ولو تعارضت رعايتها مع بعض أنماط التراكيب النحوية.

والمعروف أن اللغة العربية أوسع من النحو العربى لأن النحو قواعد أنيط بها تنظيم ما أطرد من اللغة، ثم يبقى بعد ذلك جزء من اللغة لايخضع لقواعد النحو، بسبب عدم اطراده وهو جزء من اللغة يتساوى مع المطرد فى الفصاحة. فمن قواعد الأصول عند النحاة قاعدة تقول: «الشذوذ لا ينافى الفصاحة». ولقد نزل القرآن

بلسان عربى مبين (لا بنحو عربى متين»، وهكذا امتدت تراكيبه على رحابة اللغة، ولم تنحبس فى بوتقة القواعد النحوية، فالقرآن يهيمن على اللغة كلها ما أطرد منها ومالم يطرد. أضف إلى ذلك أن القراءة سنة متبعة، لأن القران مروى بلفظه عن النبى صلى الله عليه وسلم، الذى تلقاه عن جبريل عليه السلام. وقد رواه الصحابة والتابعون، ومن تبعهم بالتواتر جمعا عن جمع. وهذا النص المروى ربما تحدى أصول النحاة بالعدول أو تحدى قواعدهم بالترخص، وقد يكون هذا العدول عن الأصل أو ذاك الترخص فى القاعدة لرعاية الفاصلة. فمن المقرر فى القواعد أن الألف تنوب عن التنوين الذى بعد الفتحة عند الوقف، كما سبق فى قوله تعالى: ﴿ **فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ (النساء ٤٦ ـ ١٥٥)، ولأن التنوين الذى نابت عنه الألف لا يجتمع مع أداة التعريف (ال) خلت النصوص العربية من الجمع بينهما حتى فى قوافى الشعر، لأن الألف التى تجامع (ال) فى قوافى الشعر ألف إطلاق وليست ألف إبدال أو تعويض. ومع ذلك تأتى ألف الإبدال فى القرآن فى كلمات اقترنت بأداة التعريف، وكانت الألف فى هذه الحالة لرعاية الفاصلة، كما فى قوله تعالى:

١ ـ ﴿ **وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا** ﴾ (الأحزاب ١٠).

٢ ـ ﴿ **يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاْ** ﴾ (الأحزاب ٦٦).

٣ ـ ﴿ **رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ** ﴾ (الأحزاب ٦٧).

ولقد تتوالى الفواصل فى آيات متتابعة ومنعاها مع تواليها واحد أو متشابه. وإنما توالت على رغم وحدة المعنى لغرض لولاه لأجزأت عن التوالى فاصلة واحدة. من ذلك أن المؤمنين هم بالضرورة موقنون، لأنهم لايؤمنون إلا مع رسوخ اليقين بما امنوا به وهم بالضرورة يعقلون ما أيقنوا به، لأن يقينهم لا يأتى إلا نتيجة تدبّر ودلالة عقلية، أى «المؤمنون» «يوقنون» و«يعقلون» ومعنى هذه الألفاظ كما يتضح متشابه إلى درجة قرب دلالتها من التوحد، وهذه الألفاظ تتوالى فى موقع الفاصلة فى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ**

مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الجاثية ٣ ـ ٦)، ففى هذه الآيات القرآنية ذكر لبعض الآيات الكونية التى تدركها الحواس، ومن ثم كان من شأن إدراكها أن يؤدى إلى الإيمان واليقين والاقتناع العقلى، بأن الإبداع لايكون بلامبدع. فليس الإدارك الحسى لايات الكون إلا وسيلة موصلة إلى الحكم العقلى المؤدى إلى اليقين والإيمان. وقد عدت الآيات القرآنية من ذلك ما يلى:

١ ـ خلق السموات والأرض وهو لضخامته وخفاء مبدعه يدعو إلى الإيمان والتسليم.

٢ ـ خلق الإنسان والدواب وهو يتم فى دقة وروعة قد يخضع للملاحظة التى تؤدى إلى اليقين.

٣ ـ اختلاف الليل والنهار (أى تعاقبهما) والمطر الذى تحيا به الأرض بعد موتها والرياح التى تهب حينا وتسكن حينا.

وهذه أمور تتصل بمصالح الناس، ويجب أن يتفكروا فى قوانينها، وأن يعقلوا حدوثها لينتفعوا بها.

ثم يطرح فى الآية الأخيرة سؤالا يقول: أبعد هذه الآيات المذكورة شىء هو أدعى للإيمان؟ وهذا فيما يبدوا نوع من الإجمال، ثم التفصيل، لأن خلق السموات والأرض يشتمل على الإنسان والدواب والليل والنهار إلخ.. فأجمله أولا وجعله موصّلا للإيمان، ثم سأل عنه آخرًا أىّ شىء أدعى منه للإيمان. وبين الإيمان فى الآية الأولى والإيمان فى الآية الأخيرة جاء اليقين والنظر العقلى ليكونا عنصرين من عناصر هذا الإيمان. وسواء أكان اليقين والنظر العقلى عنصرين من عناصر الإيمان أو قريبى المعنى منه أو مرادفين له لابد أن يثور فى أذهاننا سؤال عن السبب الذى دعا إلى إيراد هذه الكلمات بهذا التتابع مع شدة الترابط فى المعنى بينها. ولست أرى لذلك جوابا أقرب من رعاية الفاصلة.

ومعنى هذا الذى تقدم أن الفاصلة القرآنية لاتدل بالضرورة على تمام المعنى، ومن ثم تصبح وظيفتها فى القرآن غير نحوية ولا دلالية. فإذا لم يكن للفاصلة غرض

نحوى ولا دلالى، فماذا يكون الغرض منها إذاً؟ أغلب الظن أن الغرض منها جمالى صرف وإن توافقت أحيانا مع تمام المعنى. فالذى يبدو للوهلة الأولى عند النظر إلى الفاصلة أنها قيمة صوتية جمالية ترتبط أشد الارتباط بموسيقى النص القرآنى، كما ارتبط الإيقاع بذلك من قبلها.

ثالثا ـ الحكاية:

عند إطلاق لفظ الحكاية يرد على معناه الاصطلاحى أكثر من احتمال:

١ ـ فقد يرد على الذهن حكاية اللفظ المسموع، كما سمع ولو تعارضت صورته المحكية مع حالته الإعرابية، كما إذا سمعت من يقول «قابلت اليوم زيدا» فتسأله «من زيدا» بنصيب زيد.

٢ ـ وقد يرد عليه حكاية الجملة بعد القول على صورتها عند سماعها بلا تغيير فيها ولاتبديل وحينئذ تعرف الجملة بأنها «جملة محكية» وتعرب فى محل نصب على أنها مقول القول وهى التى قصدها ابن مالك عند ذكر كسر همزة «إن» إذ يقول «أو حكيت بالقول». ويعدها النحاة من الجمل السبع التى لها محل من الإعراب.

٣ ـ وقد يرد عليه ما عرفه اللغويون العرب باسم حكاية الصوت للمعنى بحيث يوحى جرس أصواتها بمعناها الذى رصد لها فى المعجم فيلتقى الجرس والعرف عندئذ على مصادفة ومحض اتفاق، ولكن انتقاء اللفظ بقصد استعماله يكون عن تعمد وحسن اختيار.

٤ ـ وثمة أمر رابع لم يعرف باسم الحكاية غير أنّ اختيار الكلمات يقع فيه لجرسها وإن كان هذا الجرس لايتفق مع المعنى المعجمى ويعرف هذا النوع من الكلمات فى عرف اللغويين بالألفاظ السُلسة وفى عرف النقاد بالكلمات الشعرية ولكنا الطّائفتين تصف هذا النوع بأنه «حسن الجرس» وإن كان لايحكى شيئا بعينه.

وربما ألّمت دراستنا للحكاية فى القرآن بأى واحد من الأنواع الأربعة المتقدمة، حيثما وجد فى النص القرآنى.

وأول ما يصادفنى من ذلك استعمال التشديد بعد قلب التاء من جنس مابعدها ليدل على التردى الجماعى أو على المبالغة فى التثاقل أو الاستعصاء على الهدى أو

نحو ذلك من المعانى المشابهة التى يجمعها عدم التقدم إلى الإمام والإخلاد إلى الأرض كما يتضح من الآيات التالية:

١ ـ ﴿ حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا ﴾ (الأعراف ٣٨) أصل الفعل «تداركوا» ولكن التاء قلبت دالاً وأدغمت فى الدال فلما سكنت اجتلبت لها همزة وصل للتوصل إلى النطق بها وسيعلم من يتأمل الفرق فى الإيحاء بين أصل الفعل والصورة التى استعمل بها أن التشديد هنا يوحى بتداعيهم فى النار متزاحمين بغير نظام، بل إن اشتمال التشديد على سكون، ثم حركة يدل على أن تزاحمهم على النار جعل بعضهم يعوق بعضها قبل أن يتردّوا فيها، فكان النقطة التى تداعوا عندها كانت كعنق زجاجة.

وهذا شبيه بإيحاء التكرار فى قوله تعالى: ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴾ (الشعراء ٩٤) أى وقع بعضهم فيها فوق بعض.

٢ ـ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ (التوبة ٣٨).

وهنا أيضا نجد أصل الفعل «تثاقلتم» وقد جرى فيه مثل ما حدث لسابقة فقلبت التاء ثاء وادغمت فى الثاء فسكنت فأجتلبت لها همزة وصل إلخ. . . . فإذا علمنا أن للتشديد عنصرين أولهما ثاء ساكنة والثانى ثاء متحركة (لأن الحرف المشدد بحرفين) أحسسنا للسكون الذى فى العنصر الأول إيحاء بالإخلاد إلى الأرض وعدم الرغبة فى الخروج للجهاد، مما يدل على أن الصوت يحكى الفعل أو على الأصح «عدم الفعل».

٣ ـ ﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ﴾ (يونس٣٥).

وفى هذه الآية أيضا نرى التاء تنقلب إلى حرف من جنس ما بعدها وهو الدال، ثم تُدْغَم فيها لأن أصل الفعل «يهتدى وكأن التشديد قد جاء هنا ليبلغ رسالة خاصة تدور حول ملحظ فى استعمال الفعل هو الدلالة على أن هذا الشخص المشار إليه لايهتدى بنفسه، وأنه إذا جاء من يقوده إلى الطريق السوى لم يسلس قياده له، فكأن

وصوله إلى الهداية آخر الأمر يأتى بعد أخذ ورد وكأنّ الذى ندب نفسه لهدايته يأخذ بيده جذبا إلى الغاية المرجوة، لكنه يحاول الإفلات منه، فما يصل به إلى الغاية إلا بعد مشقة هذا ما يوحى به السكون الذى يسبق الحركة فى التشديد وهو إيحاء من طريق الحكاية ومنه أيضا: ﴿ ادَّارَأْتُمْ فِيهَا ﴾ (البقرة ٧٢).

ثم انظر إلى ما يوحيه تعزيز التفخيم من الإحساس بالمبالغة فى الحدث أو فى الصفة فى قوله تعالى:

١ ـ ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ (فاطر٣٧).

فكأن ارتفاع أصواتهم بالصراخ ومشاركتهم جميعا فيه وتكرار ذلك منهم لايكفى أن يعبر عنه بالفعل المجرد فيقال مثلا «وَهُمْ يَصرُخُونَ فِيهَا» فجاءت تاء الافتعال لتدل على المبالغة فى إيقاع الحدث، وقد قصد لها أن تجاور الصاد المطبقة فتتحول بالمجاورة إلى التفخيم ليكون فى تفخيمها فضل مبالغة فى إيقاع الفعل.

٢ ـ ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾ (النجم ٢١ ـ ٢٢).

لولم تقصد المبالغة فى وصف هذه القسمة التى جعلت لله البنات ولهم البنين بأنها غير عادلة لكان يمكن أن يقال «تلك إذا قسمة جائرة» ولكن لفظَ «ضِيزَى» جاء هنا ليحقق غرضين مهمين أحدهما رعاية الفاصلة التى غلبت فيهَا الألف المقصورة والثانى الإيحاء بما فى الضاد من تفخيم بأن الجور فى هذه القسمة لا مزيد عليه، والثالث ما فى «ضيزى» وهى للتفضيل من زيادة فى معناها على معنى «جائزة» التى هى صفة مشبهة.

٣ ـ ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ (الرعد ٢٩).

فى أية أخرى من القرآن نقرأ ﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ ﴾ (الكهف ٨٨)، والمعروف أن الحسنى مؤنث «أحسنَ» والطوبى مؤنث «أطيب» وكلتاهما أفعل تفضيل، فلماذا عبر عن الجزاء فى الرعد بالطوبى، وفى الكهف بالحسنى؟ لعل الجواب أن سياق النص فى الكهف كان يقارن من ظلم فاستحق

العذاب بمن آمن وعمل صالحا فاستحق الحسنى، أما الرعد فالسياق يدور حول الذين امنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله، وهذه درجة فوق درجة العمل الصالح الذى لا يبلغ درجة الاطمئنان، ومن هنا كان جزاؤهم أعظم ولذا اختير لفظ «طوبى» دون لفظ «حسنى» لما فيه من تفخيم يدل على المبالغة فى الوصف، ولأن استعمال «حسنى» مع ما يلى ذلك من قوله «وحسن ماب» يجعل تكرار ألفاظ المادة الواحدة غير مستحب.

٤ ـ ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ① وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا ② وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا ③ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ④ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ⑤ وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ⑥ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ⑦ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ⑧ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ⑨ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ⑩ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴾ (الشمس ١ ـ ١١)

يقول الله تعالى فى سورة النازعات ﴿ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ (النازعات ٣٠) ولو أننا قارنا سياق هذه الآية بسياق آية الشمس «والأرض وما طحاها» لوجدنا ما كان دالاً فى «دحاها» قد تحول إلى طاء فى «طحاها» ولقد عرفنا من دراسة سيبوية لصوتى الدال والطاء أنه لا فرق بينهما فى النطق إلا التفخيم، فلو فخمت الدال لصارت طاء كما يقول، ومعنى ذلك أن العنصر الذى طرأ على الفعل «دحاها» عندما ورد فى سورة الشمس هو التفخيم، فما دلالة التفخيم هنا؟ لو نظرنا إلى الفرق بين السياقين لوجدنا فى سورة النازعات سياق «إثبات» مجرد وما فى سورة الشمس سياق «قسم» ولاشك أن فى القسم تأكيدا ليس له مثيل فى الإثبات، فإذا سلمنا بهذا الفرق بين السياقين أدركنا أن التفخيم الذى فى «طحاها» جاء لمناسبة ما فى القسم من تأكيد، بل إنه جاء ليضيف إلى القسم فضل تأكيد أى ليدل على مبالغة فى إيقاع الحدث. ومثل ذلك مانجده فى سورة البقرة من قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ ﴾ (٢٤٥) مقارنا بقوله: ﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ (٢٤٧) إذا جاء التفخيم فى الأولى مع الضم وجاء الترقيق فى الثانية مع السكون.

٥ ـ ومما يندرج تحت هذه الظاهرة ترك الكلمة الخالية من التفخيم وانتقاء أخرى تشتمل على التفخيم فى مقام المبالغة كما سبق فى اختيار «طوبى» و«ضيزى»، إلخ. . فالله سبحانه يقول:

أ ـ ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (البقر ١٤٣).

ب ـ ﴿ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾ (المائدة ٨٩)

جـ ـ ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ ﴾ (القلم ٢٨)

د ـ ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى ﴾ (البقرة ٢٣٨)

فعبر بالتوسط وأراد الحسن فكان انتقاء التوسط لما فيه من تفخيم الطاء، وقد جاء المعنى على الترتيب:

وكذلك جعلناكم أمة حسنة ـ من أحسن ما تطعمون أهليكم ـ قال أحسنهم ـ والصلاة الحسنى.

وإذا نظرنا إلى بعض ما يسمونه المحسنات اللفظية البديعية وجدنا هذا النوع من التحسين إنما هو تسخير واع لما يمكن للقيم الصوتية وظاهرة الحكاية أن تثيره فى نفس المتلقى يصدق ذلك على الجناس تاما كان أم ناقصا وعلى المشاكلة فى اللفظين، وما أشبههما من المحسنات. وإن النص القرآنى ليحسن استعمال ذلك ويحمله من الأغراض مالا يمكن الوصول إليه إلا من خلاله، وفيما يلى طائفية من الشواهد على ذلك:

١ ـ ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾ (الأعراف ١٢٧)

انظر إلى استعمال الفعل «تذر» و«يذر» إذ يتفقان لفظا ويختلفان معنى، فإما بالنسبة لفرعون فإنه إذ «يذر» موسى إنما يتوانى عن عقابه فالترك هنا نوع من التسامح، وأما بالنسبة لموسى فإنه «يذر» فرعون بمعنى «يتخلى» عنه وعن الهته ليعبد الله إلها واحدا.

٢ ـ ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾ (التوبة ٩٥)

هنا أيضا نجد فعل الإعراض يستعمل بمعنيين، فيكون من ذلك اتفاق فى اللفظ واختلاف فى المعنى. فالإعراض المقصود بالفعل المضارع مسامحة وغفران، ولكن الإعراض الذى قصد بفعل الأمر مغاضبة وترك وإهمال أى إن هؤلاء سيحلفون طلبا للغفران، ولكن الله يأمر المسلمين بمغاضبتهم.

٣ ـ ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران ٤٢) فقوله «اصطفاك» أولا بمعنى «اختارك» والثانى بمعنى «فضلك»، فالاتفاق فى اللفظ دون المعنى.

٤ ـ ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ (الشورى ٤٠)

السيئة الأولى ذنب والسيئة الثانية جزاء، وهكذا يتفق اللفظ ويختلف المعنى وصولا إلى المشاكلة.

٥ ـ ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ (الزخرف ٤٤ ـ ٤٥)

السؤال الأول حساب والثانى استفهام.

٦ ـ ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ (الأعراف ٢٦)

اللباس الأول من الملابس والثانى ملابسة ومقاربة أى مصدر «لابس يلابس».

٧ ـ ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ (الروم ٥٥)

الساعة الأولى القيامة والساعة الثانية البرهة.

٨ ـ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (الأعراف ١٩٤).

«تدعون» الأولى بمعنى تزعمون والثانية بمعنى أسألوهم، وقد يكون هناك تقارب فى اللفظ دون تطابق، وهنا يختلف المعنى بالطبع، كما فى الآيات التالى:

١ ـ ﴿ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ (الكهف ٥٣ ـ ٥٤).

إذ يشترك اللفظان «مصرفا» و«صرفنا» فى أصل الإستقاق مع الاختلاف فى المعنى فالمصرف المهرب والتصريف الإجراء والتقليب.

٢ ـ ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ (النمل ٢٢)، ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْئَوْنَ عَنْهُ ﴾ (الأنعام ٢٦). بين اللفظين جناس ناقص ولاصلة بينهما فى المعنى.

٣ ـ ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ ﴾ (العنكبوت ١٩ ـ ٢٠).

اشتراك اللفظين فى السين والياء والراء، ربما الهى عن أن المادة الاشتقاقية للأول (ي س ر) وللثانى (س ى ر).

٤ ـ ﴿ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا ﴾ (الحشر ١١).

٥ ـ ﴿ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴾ (الفجر ١٧).

وهكذا ترقى القيمة الصوتية إلى حكاية معنى عرفى رصده المعجم للفظ أو معنى طبيعى مما تَسْتَوْجِبِهِ النفس ولا تستطيع وصفه، فإن أمكن أحيانا أن نشير إليه من بعد فإننا لانستطيع تفسير العلة التى جعلته موحيا على هذا النحو، فمثل التأثر به كمثل التأثر باللحن الموسيقى نطرب له ولا ندرى لماذا، وهكذا يمكن أن ننسب إلى التفخيم مثلا إيحاء بالمبالغة فى إيقاع الحدث أو فى الوصف، فإذا سألنا أنفسنا عن السبب فى ذلك لم نستطع لهذا السؤال جوابا، والذى جئنا به هنا من الشواهد، إنما

هو نماذج مما نجده فى النص القرآنى من استعمال حكاية الصوت للوصول إلى أغراض إيحائية بالمعانى الطبيعية التى تضيف إلى المعانى العرفية للألفاظ أبعادا إضافية ما كان لها أن تتحقق لولا ما تحمله حكاية الصوت من طاقة إيحائية. وتتضح الطاقة الإيحائية للصوت كذلك فى إبداع القرآن ألفاظا لم تكن من قبل أو تحويل ألفاظ عن معانيها التى كانت لها إلى معانٍ أخرى تتناسب مع إيحاء أصوات الألفاظ. مثال ذلك مانجده من ألفاظ فى الآيات التالية:

١ ـ ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴾ (الواقعة ٥١ ـ ٥٢)

يوحى هذا اللفظ بأمرين كل منهما كرية:

أ ـ اشتراك مادة «ز ق م» مع مادة «س ق م» فى كل شىء إلا اختلاف الزاى والسين من حيث الجهر والهمس. ومن هنا يوحى «زقوم» بالسقم.

ب ـ توالى القاف (التى يقرب مخرجها من البلعوم)، والميم (التى يقتضى نطقها إقفال الشفتين) يوحى بأن ثمرة هذه الشجرة تستعصى على البلع ويطول استعصاؤها بإيحاء تشديد القاف وطول الواو التى بين القاف والميم، ويضاف إلى ذلك مشاركة هذه الكلمة لكلمة «لقمة» فى حرفين من حروفها مما يعزز فكرة إرادة البلغ من المشقة. واشتمال اللفظ على الزاى والقاف وهما الحرفان اللذان فى «زَقّ» الطائر فرخه.

٢ ـ ﴿ وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ ﴾ (الحاقة ٣٦ ـ ٣٧)

يوحى لفظ «غسلين» بأن هذا الطعام «غسالة» لشىء آخر، وأنه غير مستساغ بسبب مافى مخرج الغين من التأخر فى مكان الغرغرة التى تكون عند إرادة تنظيف الحلقوم، كما أن الغين صوت يستعمل ساكنا عند إرادة التعبير عن التقزز.

٣ ـ ﴿ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً ﴾ (الإنسان ١٨)

يوحى لفظ «السلسبيل» «بالسلاسة» والسهولة ويسر الاستساغة، وذلك لما بين اللفظين من شركة فى بعض الحروف، وفى رتبة هذه الحروف. يضاف إلى ذلك شركة مشابهة بين هذا اللفظ وبين «الاسبال» (مصدر أسبل يسبل)، وهو قد يكون

للستر أو للثياب قصدا لاتقاء الفضول مما يوحى بأن هذه العين لا تزاحم عليها، فهى فى متناول عدد محدود من الشاربين.

٤ ـ ﴿ إِلاَّ حَمِيماً وَغَسَّاقًا ﴾ (النبأ ٢٥)

اشتق من مادة (غ س ق) فى القرآن ألفاظ «الغسق» و«الغاسق» و«الغسّاق»، ويبدو أن القسط المشترك بين هذه المشتقات الدلالة على أمور كريهة، فالغسق الظلمة والغاسق الليل الشديد الظلمة، وكلاهما كريه، لأنه يؤدى إلى توقع المجهول. أما الغسّاق ففيه تسخير للتشديد الذى على السين لإيجاد توكيد للكراهية التى تستفاد من حروف المادة. وقد جاء «الحميم» طباقا للبرد الذى فى الآية السابقة وجاء «الغساق»، ليكون طباقا للشراب فى تلك الآية التى تقول ﴿ لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا إِلاَّ حَمِيماً وَغَسَّاقًا ﴾ مما يوحى بالتضاد بين الشراب والغساق، كما كان هناك تضاد بين البرد والحميم، وإذا كان هناك تضاد بين الشراب والغساق، فمعنى ذلك أن الغساق شىء لا يشرب، لأنه كريه وقد فسروه بالصديد، أما كراهية شربه فتستفاد من إيحاء الغين والقاف، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

٥ ـ ﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّين ﴾ (المطففين ٧)

هذا اللفظ «سجين» مكون من الحروف الذى يتكون منها لفظ «السجين» ومن أكثر ما يتكون منه لفظ «سجيل» وهو اسم المادة التى منها الحجارة التى يكون بها القذف والعقاب، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴾ (هود ٨٢)، ﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيل ﴾ (الحجر ٧٤)، ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ (الفيل ٤)، وفيها أيضا حرفان من (س ج ر) التى صيغ منها الفعل فى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ (غافر ٧٢)، ولا شك أن اشتراك الكلمات فى أكثر حروف المادة يجعل إحداها عند سماعها تذكر بالأخرى، وبخاصة إذا كانت الحروف غير المتشابهة، مما يعد فى العربية من قبيل الحروف الاستمرارية المتوسطة التى لاينحبس الهواء فى نطقها وكلها ينطق فى اللثة.

تلك الحروف هى النون فى «سجن» و«سجين» واللام فى «سجيل» ثم الراء فى «يسجرون» وإن النون ليخرج النفس فى نطقها حرا من مجرى الأنف ويخرج فى نطق اللام حرا من جانب اللسان ويخرج فى نطق الراء مع التكرار فلا يحبسه حابس. وصفة الاستمرار هذه هى من مقومات المدود والحركات مما يجعل الأصوات الثلاثة السابقة معها تتسم بالضعف، ويجعل الجميع، مما يعرف فى العربية بأنه «حاجز غير حصين»، ومن ثم يكون اختلاف الكلمات بحسبها كلا اختلاف، ويكون إيحاء إحدى هذه الكلمات بالأخريات أمرا واردا، لأنه من قبيل أثر القيمة الصوتية فى توليد المعنى الطبيعى الذى جعلناه من قبل بإزاء المعنى العرفى المعجمى.

٦ ـ ﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّين ﴾ (المطففين ١٨)

صيغ هذا اللفظ من مادة العلو «ع ل و» التى تميز بها تصوير الجنة فى القران، كما تميز تصوير جهنم بالاستفال، ففى الجنة «غرف من فوقها غرف»، وهى بذاتها «جنة عالية قطوفها دانية» وإذا جرت الأنهار، فإنها لا تجرى فيها، وإنما تجرى من تحتها، وأما النار فإن أهلها لايصعدون إليها صعودا، وإنما يقذفون فيها ويسمى أسوأ مكان فيها «الدرك الأسفل». وإذا ارتبطت الجنة فى التصوير بالعلو وارتبطت النار بالاستفال، فإن الأثر الذى يتركه لفظ «عليين» فى النفس وفى الفهم وفى المخيلة، لابد أن يرتبط بالجنة حتى وإن لم يقم للكلمة معنى عرفى يعزز هذا الأثر الإيحائى، أثر القيمة الصوتية أو الحكاية.

٧ ـ ﴿ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيم ﴾ (المطففين ٢٧)

لقد تكفلت الآية التالية بشرح المقصود بلفظ «تسنيم» فجاء فيها: «عينا يشرب بها المقربون» وليس اهتمامى هنا بالمعنى العرفى المعجمى الذى شرحته هذه الآية، وإنما اهتم بالمعنى الطبيعى الإيحائى الذى تحكيه أصوات الكلمة. أول انطباع يرد على النفس من هذا الاسم إنه يبدو كأن بينه وبين لفظ «نسيم» صلة قربى فالفرق بينهما لايعدو أن يكون قلبا مكانيا لصوتى السين والنون، ولاشك أن النسيم ألطف مايجرى به الهواء لما فيه من الرقة والرطوبة والإنعاش الذى ينشأ منهما، وإذا كان

الأمر كذلك، فما أجمل أن يخرج شراب أهل الجنة بماء هذه العين لأن ماءها كما صورته الحكاية يقوم بين أنواع الماء مقام النسيم بين حالات الهواء.

٨ ـ ﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ ﴾ (الغاشية ٦)

أشهر ما يصاغ من حروف هذه المادة هو لفظ «الضراعة» وسواء أكان معنى «الضريع» فى المعجم أنه نبات شوكى أو غير ذلك من المعانى التى نسبت إلى اللفظ، فإن انتباهنا فى هذا الفصل منصب على إيحاءات حكاية الأصوات للمعانى. والذى توحى به أصوات لفظ «ضريع» أن فى هذا الطعام ذلا يؤدى إلى تضرع منهم إلى الله أن يعفيهم منه فلا هو مسمن ولا مغن من جوع فهو فى النهاية لايساوى بذل الجهد فى أكله.

وهناك إيحاء من نوع آخر لايعود إلى أصوات الكلمات، وإنما يعود إلى الدلالات الهامشية للألفاظ والعبارات، فما كان من هذا الإيحاء حسنا جاء حرص النص عليه بالألفاظ، وما كان سيئا ممجوجا أطرح النص ما يؤدى إليه من ألفاظ أو عبارات. ومن ذلك مايلى:

١ ـ لقد سأل زكريا ربه: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ ﴾ (آل عمران ٤٠) وسألت مريم ربها ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ ﴾ (آل عمران ٤٧) فأجاب الله زكريا بقوله: ﴿ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ وأجاب مريم بقوله: ﴿ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ ذلك أن التعبير بلفظ «يفعل» فى حالة زكريا لايثير خواطر سيئة، لأن زكريا وامرأته زوجان فلا شبهة إن حملت المرأة، لأن زوجها بجانبها، وقد كان إخصابها بواسطة تسخير زوجها لذلك والتسخير والإخصاب من فعل الله أما فى حالة مريم فإن التعبير بلفظ «يفعل» ربما أثار خواطر سيئة فاللفظ لهذا غير مناسب، ومن هنا جاء الفعل «يخلق».

٢ ـ ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ ﴾ (النساء ١١)

لاشك أن المقيس عليه عند التقسيم هو نصيب الذكر، لأنه هو الذى يمثل الواحد الصحيح من الناحية الحسابية ولو اعتدت الآية بذلك لقالت: «للأنثى نصف حظ

الذكر» أو «للأنثى نصف الذكر» على حذف مضاف، ولكن لفظ «الذكر» من المشترك اللفظى حتى ليدل بين معانيه على عضو الذكورة من الرجل، ولما كان الأمر كذلك حَالَ معنى الملكية الذى فى اللام الجارة للأنثى دون أن يأتى لفظ «الذكر» بعد الأنثى على أى صورة نظرا لما يثيره ذلك من معنى ممجوج مرفوض. وهكذا جعل النصف وهو نصيب الأنثى مقيسا عليه وجعل الواحد الصحيح، وهو نصيب الذكر مقيسا، فقيس نصيب الذكر بضعف نصيب الأنثى.

٣ ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُم﴾ (النساء ٥٩)

لم يتكرر الفعل «أطيعوا» مع «أولى الأمر» لأن المطلوب منهم أن يكون عملهم تطبيق ما فى كتاب الله وسنة رسوله، فإن لم يفعلوا فلا طاعة لهم وإن فعلوا فإن طاعتهم ليست من أجلهم هم، وإنما لكونهم أحسنوا التطبيق.

٤ ـ ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ﴾ (المائدة ٨٢)

لم يقل: «ولتجدن أقربهم مودة للذين أمنوا النصارى» لئلا يكون النصارى فى موقع يشتبه على الفهم للوهلة الأولى، بأنه بدل من الذين امنوا، ولأن تبديلهم للإنجيل لم يجعلهم أنصارا لعيسى عليه السلام بسبب ما يفترونه عليه فهم «يقولون» إنهم نصارى، ولذلك جاء الفعل «قالوا».

٥ ـ ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ (يوسف ٢٠)

للفعل «شرى» معنيان ضدان

أ ـ أول المعنيين «اشترى» ومنه قول عنترة:

حصانى كان دلال المنايا فخاض غمارها وشرى وباعا

فالطباق الذى بين «شرى» و«باع» يدل على أن «شرى» بمعنى «اشترى».

ب ـ الثانى معنى «باع» وهو المعنى المقصود فى هذه الآية وقرينة المعنى لفظ «بثمن»، وكذلك لفظ «الزاهدين» لأن الزهد فى شىء يتناق مع شرائه ودفع الثمن له، ولكن ينسجم مع بيعه، ولكن الآية (تكريما لنبى الله يوسف) لم تعبر عن بيعه

بلفظ البيع الذى يكون للعبيد، وإنما جاءت بلفظ هو من الاضداد، ليكون التعبير به تخفيفا لوقع العبارة فى النفس.

٦ ـ ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾ (يوسف ٢٣)

تجنبت الآية لفظ «سيدته» تكريما له وتحقيرا لها، وهذا شبيه بما فى الآية الأخرى: «وقال الذى اشتراه من مصر لأمرأته» فليس هو سيداً ليوسف وليست هى سيدة له. ومما يدل على إرادة تجنب لفظ السيادة فى حالة يوسف بذاته قوله تعالى: ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ﴾ (يوسف ٢٥) فجعله سيدها ولم يجعله سيده أما قول يوسف: ﴿إِنَّهُ رَبِّي ﴾ (يوسف ٢٣)، فذلك كلام يوسف وليس كلاماً عن يوسف.

٧ ـ ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ ﴾ (يوسف ٤٦)

أخر أداة النداء ليكون تعبيرا عن رأى الفتى فى يوسف وأنه يعده صدّيقا بعد ما رأى من حسن سيرته ودعوته إلى ترك عبادة الأرباب المتفرقين إلى عبادة الله الواحد القهار. ولو قال: «أيها الصديق يوسف» لأوحى ذلك بأن لفظ الصديق كان لقبا متعارفا له ينادى به كما ينادى «الشيخ فلان».

٨ ـ ﴿ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ ﴾ (يوسف ٦١)

المراودة دعوة بإغراء وتصميم، وربما اشتملت على مواثبة تؤدى إلى الظفر بالمطلوب، وهذا ما حدث من أمرأة العزيز التى كانت «تراود فتاها عن نفسه» ولما كان إخوة يوسف يعلمون من حال أبيهم بعد فقد يوسف أنه يسضن عليهم بأخيه عدلوا عن التعبير بمجرد الطلب إلى التعبير بالمراودة.

٩ ـ ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِين ﴾ (يوسف ٩٣)

﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً ﴾ (يوسف ٩٦)

فى الآية الأول استعمل فعل الإتيان وفى الثانية فعل الأرتداد. ذلك أن مطلب يوسف فى الآية الأولى كان معلقا بإتيان أبيه وأهله أجمعين إلى مصر أما الآية

الثانية، فالكلام فيها عن المعجزة معجزة رد البصر بعد فقده أضف إلى ذلك ما فى مطلب المشاكلة فى الآية الأولى بين «يأت» و«ائتونى».

رابعا ـ المناسبة:

يقصد بالمناسبة الصوتية أن يكون الصوتان المتجاور ان أو اللذان يفصل بينهما حاجز غير حصين أن يكونا على صورة لا يرد فيها تنافر أحدهما مع الآخر لافى الأداء ولا فى السمع، وتخضع بعض صور المناسبة الصوتية فى اللغة العربية للتقعيد، ويظل بعضها الآخر للاختيار الأسلوبى الفردى الفنى، ومما يخضع للقاعدة:

١ ـ تفخيم لام لفظ الجلالة وترقيقة بحسب الصوت الذى يسبقه.

٢ ـ تحريك ضمير الغيبة بحسب ما يسبقه أيضا.

٣ ـ كسرة المناسبة قبل ياء المتكلم عند الإضافة وياء المخاطبة فى الفعل المضارع والأمر.

٤ ـ بناء الماضى والأمر على الضم لمناسبة واو الجماعة.

٥ ـ تحريك آخر كل فعل بالفتحة إذا اسند إلى الألف.

٦ ـ الفتحة الدالة على الألف المحذوفة فى نحو يسعون ويرضون.

٧ ـ الجر بالكسرة لما دخل عليه حرف الجر الزائد.

٨ ـ اتباع العين للفاء فى جمع المؤنث السالم من الثلاثى نحو سجدات.

أما الجانب الأسلوبى الفردى الاختيارى من المناسبة فقد اشتهر منه أمران:

١ ـ إعراب الجوار مع أطّراح الإعراب بحسب القاعدة، ويعد ذلك نوعا من الترخص فى القرينة الإعرابية وقد سبقت الإشارة إليه فى موضعه من هذا البحث. ويعد ذلك فرديا اختياريا، لأنه يتم بالاختيار الحر من قبل منشىء النص، وقد كانت له مندوحة عن استعماله، فإن اضطر إلى ذلك فى الشعر، فهو ضرورة.

٢ ـ الإتباع وهو يتم بإيراد لفظين بينهما شبه تقفية، وقد اشتهر من ذلك عبارات مأثورة مثل حيص بيص وشذر مذر، بحيث لايعطف أحد اللفظين على الآخر، فإن

عطف نحو أهلا وسهلا، فليس ذلك من الاتباع، ولمنشئ النص أن يصوغ من ذلك ما شاء باختياره، وهو مسئول عما يفعل فى معيار النقد.

أما المناسبة بحسب القاعدة، فلا فضل فى رعايتها لأسلوب على آخر، بل إن شجاعة الصياغة، قد تتمثل فى عدم رعايتها، كما فى قوله تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ** ﴾ (الفتح ١٠).

إذ جاءت الهاء من «عليه» مضمومة على الرغم من الياء الساكنة التى قبلها، والأسلوب القرآنى فى عموم أحواله يراعى أن ينسجم مع هذه القواعد التى تحكم هذا النوع من المناسبة، وأما المناسبة الفنية التى لا تحكمها القاعدة، فهى التى نحاول أن نعرض لمظاهرها فى الأسلوب القرآنى فنقول وبالله التوفيق:

لعل أشهر مظهر قرآنى للمناسبة الصوتية التى لاتحتمها القاعدة هى الفاصلة القرآنية، لأن طبيعة الفاصلة أنها إتيان بخواتم الآيات طبقا لاختيار أسلوبى مقصود، بحيث يكون ثمة مناسبة صوتية بين رأسى الآيتين، وأكبر دليل على أن ذلك أمر اختيارى أنك قلما تجد واحدة من طوال السور فى القرآن تلتزم فيها فاصلة من جرس واحد (وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك فى كلامنا عن الفاصلة)، وإذا لم يلتزم فيها ذلك، فلا مشاحة فى أن الأمر يحكمه الاختيار، دون القاعدة. ولكون المناسبة الصوتية تعتمد على الانسجام لاعلى المطابقة التامة وجدنا الفاصلة القرآنية تتحقق بالصوتين المنسجمين، ولايتحتم فيهما أن يكونا متطابقين (ارجع إلى ما سبق فى دراسة الفاصلة)، ومن هنا نجد الياء فى «المخبتين» تنسجم مع الواو فى «يُنْفِقُونَ» (الحج ٣٤ ـ ٣٥) والياء فى «قدير» و«عَزِيز» تنسجم مع الواو فى «الأُمُورِ» و«ثَمُودَ» و«لُوط» (الحج ٣٩ ـ ٤٣)، بقطع النظر عن الصوت الواقع فى نهاية كل كلمة من هذه الكلمات. ومغزى هذا أن المناسبة الصوتية هى المبدأ الذى تقوم عليه الفاصلة القرآنية، وأما القافية الشعرية، فلا تقنع بالمناسبة، وإنما تتخطاها إلى المطابقة. وفى المناسبة كما رأينا حرية وانطلاق واختيار أسلوبى، ولكن المطابقة التزام وتقييد وقاعدة تتحكم فى الاختيار، وتسلم أحيانا إلى الضرورة.

والذى يلى الفاصلة من مظاهر المناسبة الصوتية فى القرآن الكريم هو «الإمالة»

وهى تكاد تكون ظاهرة نجدية لا ترد لدى الحجازيين إلا قليلا. وعلى الرغم من أن ارتباط الإمالة بالمناسبة تحكمه بيئات صوتية خاصة تصبح الإمالة بها ظاهرة موقعية، لا يمكن أن يعد هذا الارتباط قاعدة من القواعد الملزمة لأى قارىء من قراء القرآن الكريم، لأنه فى موقع المختار بين استعمال قراءة الإمالة وعدمه، وإذا ثبت له الاختيار أصبح استعمال الإمالة أو تركها قرارا يتخذه القارىء، كما يختار المتكلم تقديم الخبر أو تأخيره على المبتدأ فى الاستعمال، ومعنى كون المناسبة هى سبب الإمالة أن الألف، إنما تمال للمح الملابسة بينها وبين الياء أو الكسرة، فهذه الملابسة تجعل المناسبة غاية أسلوبية صوتية. وقد تكون ملابسة الألف للياء أو الكسرة على إحدى الصور الآتية:*

١ ـ إبدال الألف من ياء متطرفة كما فى رمى وهدى

٢ ـ حلول الياء محلها فى بعض تصاريف الكلمة، كما فى التثنية فى نحو كبرى وسعدى وكالبناء للمجهول لنحو دعا وتلا

٣ ـ إبدال الألف من عين الفعل الأجوف الذى إذا أسند إلى التاء كسرت فاؤه كما فى بَاعَ وسَالَ ومَالَ.

٤ ـ وقوع الألف بحيث تتلوها الياء كما فى دَايَنَ وبَايَعَ وشَايَعَ.

٥ ـ وقوعها بعد الياء إما متصلة بها كما فى حيّان أو منفصلة عنها بحرف واحد كما فى هيفاء أو منفصلة عنها بحرفين أحدهما الهاء كما فى بينى وبينها.

٦ ـ وقوعها قبل الكسرة مباشرة كما فى عالم الغيب أو بعدها وبينهما حرف نحو سريع الحساب أو بينهما حرفان أولهما متحرك غير مضموم وثانيهما الهاء كما فى مناكبها أو أولهما ساكن مطلقًا نحو إفلاس أو بينهما متحرك وساكن معهما الهاء نحو درهماك.

٧ ـ السعى إلى إيجاد المناسبة بين كلمتين فى إحداهما إمالة لأحد الأسباب المتقدمة كما فى إمالة ألف الضحى (مع كونها واوية) لمناسبة الإمالة فى سجى وقلى ذواتى الألف المبدلة من ياء متطرفة.

---

* انظر شذا العرف للشيخ أحمد الحملاوى.

وتمتنع إمالة الألف لأسباب منها أن يتصل بها حرف يستحق التفخيم كالراء غير المكسورة وكحروف الاستعلاء السبعة غير مكسورة أيضا أى أن التفخيم يدفع الإمالة والكسرة تأذن لها وهذا هو المقصود بكون الإمالة من المناسبة الصوتية.

ومن المناسبة الصوتية أيضا أن الثلاثى الساكن العين إذا كان اسما غير صفة وجمع بالألف والتاء حركت عينه بمثل حركة الفاء سواء أكان تأنيثه حال الإفراد بالتاء كسجدات وخدمات وقبلات أم كان بغير التاء كدعَدَات وهندَات جمُلاَت (فى دعد وهند وجمل) ولئن جاز فى مكسور الفاء ومضمومها تسكَين العين لم يجز فى مفتوح الفاء إلا إتباع حركة العين حركة الفاءّ للمناسبة، ولكن هذه المناسبة تحكمها القاعدة فهى تركيبية وليست أسلوبية. فإذا لم تكن العين ساكنة كما ﴿ **فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ** ﴾ (فصلت ١٦) ﴿ **فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ** ﴾ (البقرة ٣٧)، ﴿ **وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ** ﴾ (الرعد ٦) لزمت العين حركتها وامتنع الاتباع وإذا لم تكن العين مفردة بل كانت مشددة كما فى «عمأت» فلا مجال للاتباع وإذا كانت العين الساكنة واوا أو ياء كما فى ﴿ **ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ** ﴾ (النور ٣١) و﴿ **فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ** ﴾ (البقرة ١٤٨) بقيت عين الكلمّة على سكونها أما فيما عدا ذلك فإننا نجدَ الأسلوب القرآنى يميل إلى الربط بين الفتحة وحرف الحلق فى أول الكلمة كما فى ﴿ **كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ** ﴾ ((البقرة ١٦٧) وقوله ﴿ **وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ** ﴾ (المؤمنون ٦٧) أو حرفا حلقوميا نحو ﴿ **وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ** ﴾ (الانعام ٩٢) وإن لم يطرد ذلك اطرداً تاما. وفى غير هذه الحروف تَسُودَ الضمة كما فى ﴿ **ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ** ﴾ (النور ٤٠) وكذلك ﴿ **وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ** ﴾ (التوبة ٩٩) وأيضا ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ** ﴾ (الحجرات ٤) وكذلك ﴿ **وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ** ﴾ (البقرة ١٩٤) و ﴿ **وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ** ﴾ (الأنعام ١٤٢)

ويبدو أن «فعلات» بكسر فاء الكلمة لم ترد فى القرآن.

قلنا إن المناسبة فى الحالة التى بين أيدينا (أى جمع المؤنث الثلاثى بالألف والتاء) قضية تركيبية تحكمها القاعدة وليست أسلوبية تتصل بالاختيار الفردى أما ما يتصل بالاختيار من مثل ذلك فهو «اتباع» الحركة أختها فى ألفاظ مفردة مثل:

* ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ ﴾ (الحج ٥)

* ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ﴾ ـ(يونس ١٦)

وقد توعو المناسبة إلى وصف اللفظ بصفة من مادة اشتقاقه كما فى قوله تعالى: ﴿ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ﴾ (آل عمران ٤) إذ عُدِل بالاختيار الأسلوبى عن لفظَ «المكدسة» مثلا إلى لفظَ «المقنطرة» سعيا إلى إيجَاد المناسبة بين الموصوف وصفته وإلى تحميل العبارة دلالة إضافية على معنى «التراكم». وقد تدعو المناسبة أحياناً إلى استعمال لفظين متشابهى الجرس (بالإتباع) لإعطاء العبارة معنى غير ما تعطيه ألفاظها بواسطة معانيها العرفية كما فى قوله تعالى:

* ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ (آل عمران ١٣٤) لإفادة الشمول أى فى كل الأحوال.

* ﴿ لا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَؤُلاءِ ﴾ (النساء ١٤٣) لإفادة الشمول أيضا أى ليس إلى أى من الفرقاء.

* ﴿ فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴾ (النساء ٤) لتأكيد المعنى أى هنيئا حقا

* ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (النساء ١٧) لتأكيد المعنى أى أنه عليم نوعا خاصا من العلم تدعمه الحكمه.

ومن المناسبة أيضا أن يأتى ثانى اللفظين من مادة اشتقاق الأول وإن اختلف جرسهما كما فى قوله تعالى:

* ﴿ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (آل عمران ٨١)

* ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران ٧٦)

* ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران ١٥٩)

* ﴿ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ (آل عمران ١٨٧)

* ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴾ (النساء ١٣٠)

فهناك مناسبة أشتقاقية بين «اشهدوا» و«الشاهدين» ثم «اتقى» و«المتقين» ثم «توكل» و«المتوكلين» ثم «اتشروا» و«يشترون» وأخيرا بين «سعته» و«واسع». وقد تكون المناسبة بإخضاع الحركة لما جاورها سواء أكانت الحركة للبناء أم للإعراب. فمن إخضاع حركة البناء لما جاورها ما فى قراءة حمزة من قوله تعالى: «فلإمه الثلث» بكسر همزة «إم»، ومن إخضاع الحركة الإعرابية للمناسبة فى قراءة كسر الدال فى قوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾. لتكون ثمة مناسبة بين الدال واللام الجارة التى بعدها.

خامسا ـ حسن التأليف

ليس لحسن التأليف فى متن اللغة قواعد محددة ولهذا جعلناه ظاهرة أسلوبية لا تركيبه ذلك بأن متن اللغة جزء من فقه اللغة لا من الصرف ولا من النحو وأقصى ما يصل إليه فقه اللغة من الضبط أمران:

أ ـ أن ينتفع بنتائج العلوم الأخرى ذات الضبط كانتفاعه بظاهرة الاشتقاق (وهى صرفية) فى تنظيم مادته الأصلية وهى المفردات.

ب ـ أن يغامر بالكشف عن اتجاهات عامة لا ترقى إلى قياسية القواعد كحين يتكمل عن حركة عين المضارع محاولا استقراء نوع اطراد لسلوكها وكقوله فى أحد اللفظين المترادفين (الطريق والسبيل مثلا) إن أحدهما يرد فى معرض الشر ويرد الآخر فى معرض الخير الخ.

ومع ذلك نجد الكلام فى حسن التأليف مهما بالنظر إلى حقلين تطبيقيين من حقول الاستعمال اللغوى:

الأول: حقل الكلام فى الفصاحة، فلقد نسبت الفصاحة مرة إلى القبيلة فكان الكلام فيها من قبيل علم اللغة الاجتماعى، ونسبت مرة أخرى إلى الكلام فأضافت

إلى ذلك قدرا من طابع النقد الأدبى. ونسبت مرة ثالثة إلى الكلمة فكانت من فقه اللغة أو من اللغة. أما قبائل الفصاحة فقد عدّها الرواة والنحاة ست قبائل فى وسط الجزيزة وقد نسبوا ماعداها من القبائل إلى عدم الفصاحة. وجعلوا مدار التميز بين الفريقين على مبدأ النّقاء اللغوى بعدم الأخذ من لغات الأمم الأخرى أو التأثر بهذه اللغات. وأما الكلام فقد رأوه فصيحا إذا خلا من التعقيد اللفظى والتعقيد المعنوى. وهكذا جعلوا فصاحة الكلام صفة سلبية غير إيجابية لأن البحث عن الصفات الإيجابية التى تدخل فى تعريف الكلام الفصيح ربما أدت إلى الكثير من التفصيل الذى يتنافى مع ما يتطلبه التعريف من إيجاز شأن ذلك شأن الكثير من المفاهيم التى تستعصى على التعريف الإيجابى فيلجأ عند تعريفها إلى الانتفاع بالعبارات السلبية. ولنا فى النحاة أسوة فى هذا المجال. فلقد عرّفوا الحرف بقولهم «والحرف ما ليس كذلك» (أى ليس له خصائص الأسماء ولا خصائص الأفعال) كما عرفوا المفرد بالسلب ثلاث مرات فقالوا.

أ ـ ماليس مثنى ولا جمعا (وذلك فى الصرف).

ب ـ ماليس مضافا ولا شبيها بالمضاف (وذلك فى باب النداء).

جـ ـ ماليس جملة ولا شبهه جملة (وذلك فى باب المبتدأ والخبر).

وأما فصاحة الكلمة فقد ارتبطت بخلوها من تنافر الحروف. غير أن هذا «الخلو» السلبى يمكن أن يتحول إلى الإيجاب من خلال القول بحسن التأليف لتصبح الكلمة الفصيحة هى التى حسن تأليفها أى تناسبت أجراس حروفها الأصلية بحيث لا يكون فى نطقها عسر ولا ثقل.

الثانى: حقل الكلام فى الألفاظ الشعرية وغير الشعرية، وهذا الحقل أوسع من مجرد الانشغال بتجاور الأصوات وإنما يشمل أصوات الكلمة فى عمومها متجاورة كانت أم غير متجاورة. بل إنه فى بعض صوره يشمل حتى ظاهرة الحكاية (حكاية الصوت للمعنى) التى أشرنا إليها فيما سبق من هذا الفصل. وأكثر من ذلك أن جرس الألفاظ قد حمل لدى بعض المذاهب الإبداعية والنقدية الحديثة أحمالا من المعانى الأنطباعية والإيحائية حتى لقد ذهب البعض إلى جدوى تجاهل المعانى العرفية التى ينسبها المعجم للكلمات واستنباط دلالات الكلمات من جرسها لا من عرفها.

هذا فى الحديث، أما لدى السلف من نقادنا العرب فقد قرأنا الإشارة إلى حلاوة اللفظ وطلاوته وسلاسة الأسلوب وما فيه من ماء ورونق. وتلك عبارات لا تكاد تظفر منها بدلالة على شىء محدد فهى نفسها لا تفى بأكثر من دلالا انطباعية.

ولقد ربط المتأخرون من البلاغيين بين حسن التأليف ومخارج الحروف فرأى البهاء السبكى فى كتابه «عروس الأفراح» ونقل عنه السيوطى فى المزهر* أن رتب الفصاحة متفاوتة فإن الكلمة تخف وتثقل من حرف إلى حرف لا يلائمه قربا أو بعدا. ثم قسم مخارج الحروف العربية إلى ثلاث مجموعات أنشأ بينها احتمالات للتأليف فخرج منها بتقسيم أنواع الأصول الثلاثة للكلمة إلى أثنى عشر احتمالا. وجعل المخارج القصوى هى الآعلى والمخارج التى يشارك اللسان فى نطقها هى المخرج الأوسط أمّا المخرج الأدنى فهو المجموعة الشفوية. ورتب الفصيح وغير الفصيح على توالى أصول الكلمة بحسب هذه المجموعات على النحو التالى:

١ ـ	الأعلى	فالأوسط	فالأدنى	مثل	ع د ب
٢ ـ	الأعلى	الأدنى	الأوسط	مثل	ع م د
٣ ـ	الأعلى	الأدنى	الأعلى	مثل	ع م ه
٤ ـ	الأعلى	الأوسط	الأعلى	مثل	ع ل ه
٥ ـ	الأدنى	الأوسط	الأعلى	مثل	ب د ع
٦ ـ	الأدنى	الأعلى	الأوسط	مثل	ب ع د
٧ ـ	الأدنى	الأعلى	الأدنى	مثل	ف ع م
٨ ـ	الأدنى	الأوسط	الأدنى	مثل	ف د م
٩ ـ	الأوسط	الأعلى	الأدنى	مثل	د ع م
١٠ ـ	الأوسط	الأدنى	الأعلى	مثل	د م ع
١١ ـ	الأوسط	الأعلى	الأوسط	مثل	ن ع ل
١٢ ـ	الأوسط	الأدنى	الأوسط	مثل	ن م ل

ورتب السبكى أحسن أحوال التأليف ترتيبا تنازليا فقال أحسنها الأول فالعاشر فالسادس وأما الخامس والتاسع فهما سيان فى الاستعمال وإن قضى القياس بأرجحية التاسع وأقل الجميع استعمالا السادس.

* المزهر للسيوطى ص ١١٥.

وفى كتاب اللغة العربية معناها ومنباها نقد لصنيع السبكى فمن شاء فليرجع إليه، ويمكن أن نضيف هنا بعض الملاحظات الأخرى:

١ ـ إن قول السبكى منذ قليل: «فإن الكلمة تخف وتثقل» فيه ربط حسن التأليف بطلب الخفة والمعروف أنهما يلتقيان ويفترقان لأن لكل منهما مجالا فى التطبيق إذ قد يعدّ توالى النون والقاف مثلا من حسن التأليف ولكن طلب الخفة يدعو إلى إجراء صوتى ينأى بالنون عن مخرجها الأصلى لتخفى قبل القاف فما يبقى من صفاتها التى تمتاز بها إلا غنتها وهى أقوى صفاتها.

٢ ـ إن الأمر فى حسن التأليف لا يتعلق بالمخارج فقط وإنما يتعدى المخارج إلى الاعتداد بالصفات. فكما يتنافر الصوتان بسبب مخرجيهما يتنافران بسبب الصفتين أيضا. فثمة صفات تقف الواحدة منها من الأخرى موقفا عناديا تناكريا بحيث لا تتفق الواحدة مع الأخرى فى جوار واحد مثال ذلك أن الاستعلاء لاينسجم مع الاستفال ولا ينسجم الإطباق والانفتاح ولا الصفير والتفشى ولهذا امتنع توالى الجيم والصاد للسبب الأول فإذا وردت كلمة توالت فيها الجيم والصاد فهى معرّبة وكذلك امتنع توالى الجيم والقاف ولهذا السبب أيضا وصفت كلمة «مستشزرات» بالتنافر لتجاور الصفير والتفشى وإن وقعت هذه الكلمة فى نطاق ما سميناه «الترخص فى التأليف» كما سنرى بعد قليل.

والذى ينبغى أن نفهمه مما تقدم أن الكلام عن ظاهرة حسن التأليف إنما يتناول الأصول الثلاثة للكلمة المفردة، أما فيما يتجاوز هذه الأصول فإننا نجد من حالات التوالى ما يدعو إلى شىء من الترخص فى التأليف وذلك بقبول تتابع الأصوات كيفما اتفق إذ لا حيلة لمنشىء النص للتغلب على ما يشبه الضرورة فى الاستعمال وتتضح هذه الحاجة إلى الترخص فى الأحوال الآتية:

أ ـ الالتزام بالصيغة الصرفية.

ب ـ الالتزام بخصوص الزوائد فى الكلمة.

جـ ـ الالتزام بخصوص اللواصق.

د ـ الالتزام بصورة الضمير المتصل وخصائصه الصوتية.

هـ ـ الالتزام فى مفصل الكلمتين بصورة كل منهما وحرفهما.

وسنضرب لكل من هذه الحالات أمثلة من ترخص النص القرآنى فى التأليف مع الإشارات إلى وسائل هذا النص الكريم ولتطويع البيئة اللفظية بحيث يخف بها وقع الترخص أو نذكر بدائل كانت ممكنة فعدل عنها لما يحيط بها من لبس أو غيره.

أ ـ الالتزام ببنية الصيغة الصرفية:

١ ـ قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ ﴾ (الأنعام ٢٧) هنا صوتان حتّم الالتزام ببنية المجهول أن يلتقيا وهما بمقياس التأليف متنافران. ذانك هما الواو والضمة والمعروف أن اجتماعهما يوصف بالثقل والثقل مجاف لحسن التأليف. وهناك أيضا توالى الضمة التى على الواو والكسرة التى على القاف، وقد عودتنا طرق التصريف العربية أن تقلب الواو فى مثل هذا الموضع إلى الهمزة كما فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَت ﴾ (المرسلات ١١). ولكن قلب الواو إلى الهمزة هنا سيوقعنا فى توالى الهمزة المضمومة والفاق المكسورة فى «أقفُوا» وذلك أثقل من التقاء الهمزة المضمومة والقاف الساكنة (أول عنصرى التشَديد) فى لفظ «أُقتت» لقرب المخرجين وتوالى الحركتين العدوتين.

٢ ـ قال تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا ﴾ (الأعراف ٢٠) هنا أيضا التقت الواو مع الضمة وبعدهما كسرة الراء. ولو قلبت الواو همزة لِتَجَنُّبِ ذلك لوقع اللبس إذ يصبح المبنى للمجهول وكأنه صيغ من الفعل «أَوْرَى» لا من الفعل «وارى» أما توالى الضمة والكسرة فقد خفف من حدته المد وهو يساوى السكون فى نظام اللغة سواء أكان ذلك فى الصرف أم فى العروض. ومع أن «الحرف الساكن حاجز غير حصين» كما تقول أصول النحاة نراه حاجزا على أى حال وكونه كذلك جعله يحول دون التوالى المباشر للعدوتين. هذا إذا لم نضف إلى الحاجز عنصرا آخر هو صوت الراء الذى تحمل الكسرة فسبقها فى النطق.

ب ـ الالتزام بخصوص الزوائد فى الكلمة:

قلنا إن ما سبق من كلام السبكى يصدق على الأصول الثلاثة الاشتقاقية للكلمة

(فاء الكلمة وعينها ولامها) أما الزيادات فهى تزاد فى الكلمة بلفظها كما تقضى القواعد الصرفية مع قطع النظر عن الصوتين المتواليين فإذا كان لدينا مادة اشتقاقية مثل: (ت ب ع) وأردنا صياغة فعل منها على وزن «تَفَاعَلَ» ألحقنا بأولها تاء زائدة دون أن نعبأ بتوالى التاءين فقلنا «تتابع» فإذا أردنا صياغة مضارع منها مسند إلى الغائبة مثلا قلنا «تتتابع» غير عابئين بتوالى التاءات. وإذا أورد النص القرآنى فعلا مبدوءا بتاءين زائدتين فإما أن يحذف إحداهما كما فى ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ (الحجرات ١١) وإما أن يبقى عليهما كما فى ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا ﴾ (محمد ٣٨) وهكذا يرد الحرف الزائد بخصوصه مهما جاوره من مثله أو ماقاربه. ولهذا نجد التاء والطاء فى قوله تعالى: ﴿ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا ﴾ (الكهف ٧٧) والصاد والطاء فى ﴿ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴾ القمر ٢٧) وربما كان فى ذلك ما يعتذر به عن قول امرئ القيس: «غدائره مستشزرات إلى العلا» إذ جمع بين صفير السين وتفشى الشين وصفير الزاى. ولكن بعض ذلك من زوائد الكلمة وقد رأينا أن الزوائد تأتى بنصها وكما هى.

جـ - الالتزام بخصوص اللواصق:

المقصود باللواصق تلك العناصر الصوتية التى تلصق بأول الكملة أو آخرها لتضيف إلى الكلمة معنى صرفيا معينا، ولهذا تأتى «اسماء هذه اللواصق على صورة تركيب إضافى المضاف فيه هو اللاصقة والمضاف إليه معناها فيقول مثلا: ألف المتكلم كما فى «أقول» وتاء التأنيث كما فى «قالت» ونون التوكيد كما فى «ليقولن» وهكذا. ومَثَل هذه اللواصق كمثل حروف الزيادة إذا أتى بها جاءت بلفظها مهما جاورها من الأمثال أو الأشباه فإذا كان لدينا فعل مثل: «يؤمن» وأردنا توكيده بالنون الثقيلة قلنا: «لنومنّن» كما فى قوله تعالى: ﴿ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (الأعراف ١٣٤) ولم يحل دون ذلك توالى ثلاث نونات على صورة (نَنْنَ) ومثله قوله تعالى: ﴿ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ﴾ (فاطر ٤٢) أما إذا

كانت أولى هذه النونات ليست من بنيه الكلمة فإن اللغة إما أن تحذفها كما فى ﴿ لَتُبْلَوُنَّ ﴾ (آل عمران ١٨٦) وإما أن تفصلها عن أختيها بحاجز مهما كان غير حصين كما فى «لَتَسْعْيَانَ» وهكذا تجتمع الطاء والتاء فى ﴿ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ (البقرة ٢١٧) وفى تواليهما مجاورة الاستعلاء للاستفال كما علمنا واجتمعا أيضا فى ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ ﴾ (البقرة ٧٥) لأن فى «أفتطمعون» ثلاث لواصق هى همزة الاستفهام وفاء العطف وتاء المضارعة للمخاطبين.

د الالتزام بالضمير المتصل وخصائصه الصوتية:

١ ـ قال تعالى: ﴿ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ ﴾ (المائدة ٢٨) هنا توالت الطاء (وهى لام الكلمة) والتاء (وهى ضمير المخاطب) لأن الاستعمال يحتم التاء للدلالة على المخاطب فالتاء بخصوصها ضرورية للدلالة على المخاطب كما أن الطاء بخصوصها لا يستغنى عنها بوصفها لام الكلمة فى الفعل «بسط» ومن هنا لا يمكن اسناد «بسط» إلى المخاطب إلا بتوالى الطاء والتاء وهكذا يأتى الترخص فى التأليف طبيعيا لا غبار عليه.

٢ ـ قال تعالى: ﴿ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ﴾ (الإنسان ٢٦) ترى الفعل «سبح» مجرداً حَسَنَ التأليف لأنه اجتمع فيه (الأوسط فالأدنى فالأعلى) ولكن التعدية إلى المفرد الغائب تحتم مجى الهاء بعد الحاء مع مابينهما من قرب المحرج وهكذا يأتى الترخص المباح بل الضرورى الحسن وحينما لمز البلاغيون قول الشاعر.

كريم متى أمدحه أمدحه والورى معى وإذا ما لمته لمته وحدى

لم يعيبوا تجاور الحاء والهاء إذاً لطالبناهم باختلاق لغة غير العربية وانما عابوا من البيت تكرار هذا الترخص حتى أصبح واضحا أن هناك ترخصا فى التأليف، ومع أن الأداء القرآنى يعمد إلى إظهار الحاء والهاء فى ﴿سَبِّحْهُ ﴾ (الدهر ٢٦) نجد النحاة يروون عن بعض القبائل الأدغام بحيث تكون (ح + ه) أو (ع + ه) = (ح + ح)

ويظهر ذلك فى «لم يمنحّهم» حتّى لا يدرى إن كان المقصود: «لم يَمْنَحْهُمْ» أو «لم يمنعهم».

هـ ـ الالتزام عند مفصل الكلمتين بتكوين كل منهما:

١ ـ قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ﴾ (المائدة ١١٠) فالتقت الذال والتاء ومخرجاهما متقاربان فالذال تنطق بوضع طرف اللسان بين الأسنان والتاء تنطق بوضعه بحيث يلامس داخل الأسنان العليا وجزءاً من اللثة وحكمه فى الكلمة الواحدة الإدغام كما فى ﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ (يوسف ٤٥) وهذا من المواضع التى يخاف على القارئ اللحن فيها بالإدغام لهذا السبب كما يقول ابن الباذش فى الإقناع* ولكن «إذ» كلمة مستقلة تبدأ بهمزة مسكور وتنتهى بذال ساكنة و«تخرج» كلمة أخرى مستقلة تبدأ بتاء المضارعة ولو ذهب أحد الصوتين لذهبت الكلمة التى هو منها فلا مناص من الترخص فى التأليف للمخافظة على الكلمتين وبالتالى للمحافظة على المعنى.

٢ ـ قال تعالى:

أ ـ ﴿ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ (المائدة ١٢)

ب ـ ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا ﴾ (المائدة ٧٧).

جـ ـ ﴿ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ (الأنعام ١٤٠).

د ـ ﴿ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ (الأنعام ٥٦).

التقت الدال والضاد فى كل من هذه الآيات عند مفصل الكلمتين على رغم اتصال مخرجيهما واشتراكهما فى بعض الصفات ولكن النص القرآنى عالج هذا النوع من الترخص إما بقلقلة الدال كما فى قراءة حفص وإما بالإدغام كما فى قراءة ورش. وهكذا خفت وطأة الترخص فى الآيات المذكورة.

أما بالنسبة لما عدا هذه الحالات الداعية إلى الترخص فى التأليف فإن بالقرآن من

* الاقناع لابن الباذش ص ١٧٦ وما بعدها..

حسن تأليف الأصول الثلاثة للكلمات مالا مزيد عليه، واقرأ كتاب الله قدر ما تشاء فاحصا منقبا فى طرق تأليفه للأصول الثلاثة ولن ترى فيه إلا العذوبة والسلاسة والسهولة على اللسان فلا نبوة فيه ولا تنافر وإنه لكما قال فيه القرشى الكافر مرغما: «إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه ليعلو ولا يعلى عليه».

نخرج مما تقدم بالنتائج التالية:

١ ـ لا تجد فى كتاب الله كلمة مفردة تلاحظ أى قدر من التنافر أو سوء التأليف بين أصولها الثلاثة.

٢ ـ هناك مواضع للترخص فى التأليف ذكرناها من قبل ولا حيلة فى تعديل التأليف بهذه المواضع لأن العناصر اللغوية فيها مقصودة بلفظها سواء فى ذلك مبانى الصيغ الصرفية أو الزوائد أو اللواصق أو الضمائر المتصلة أو مكونات المفرداة فمن صاغ فى العربية قولا فلا مناص عنده من رعاية هذه المواضع لأن رعايتها جزء من رعاية الوصول إلى المعنى وهو أهم ما تحرص اللغة على الوصول إليه.